

الفصل الأول:

مفاهيم ونظريات:

المدينة ونشأتها.

مقدمة:

إن ظاهرة التحضر تعتبر حديثة نسبيا في التاريخ البشري، كما إن عمليات التحضر لم تعرف نشاطا كبيرا إلا في الحقبة الأخيرة من التاريخ قياسا بالعمليات الاجتماعية والمجتمعية الأخرى. لقد عرفت المدن في الآونة الأخيرة حركية عالية الوتيرة بفضل ما تعرفه من نهوض كبير في شتى المجالات وخاصة الاقتصادية منها دفع بأفواج كبيرة من السكان بالنزوح نحوها من أجل تحقيق ورفع مستوى معيشتهم.

إن التطور العمراني يستند أساسا وأكثر فأكثر على الإرث العمراني والمعماري والذي يصبح الهدف الأساسي والمهم للتطور العمراني للمدن والمجتمعات، ومن هذا المنطلق فان معرفة تاريخ الإطار المبني هو الكفيل لإجراء دراسة معمقة.

(1)- مفهوم المدينة:

لقد شهدت المدن منذ نشأتها قديما عدة تغيرات توافق متطلبات واحتياجات سكانها، فاكتملت نوعا من التعقيد على مستوى منظوماتها التركيبية مما صعب المسؤولية أمام المختصين في ضبط ملامحها التعريفية وذلك لتعدد التعاريف الخاصة بها وذلك باختلاف التخصصات العلمية.

ومنه فان المدينة تعتبر ظاهرة يصعب حصرها في ممارسة أو ممارستين، فقد اختلف الباحثون والمنظمات المعنية بهذا الشأن اختلافا كبيرا في وضع مفهوم للمدينة نظرا لما تحيط به من ظواهر وما تمتاز به من حركية عالية الوتيرة.

فمن جهة اللغة وكما جاء عند (غالبا، ع- ر، 1988) المدينة هي الكلمة المستقاة من " دين " ذات المعنى السامي وهي مفرد جمعها مدن ومدائن وهي حصن يبني وسط قرية كبيرة وكثيرة السكان كما يطلق عليها أيضا مصطلح " المصر " .

وأما اصطلاحا: فنجد اختلافا كبيرا نظرا لكثرة العلماء والمؤرخين ولتعدد أمكنتهم وأزمنتهم، فقد اعتقد أرسطو كما عند (خلف الله، ب، 2005) أن المدينة هي مجموعة من الذكريات الصخرية التي يمكن إدراك معانيها ومكوناتها، أما ابن خلدون فيرى >> أن المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير ... وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون، فلا بد في تمصير واختطاط المدن من الدولة << .

ونقل بلقيريني في كتابه >> الجغرافيا الحضرية << عن دلماسو تعريفه للمدينة على أنها >> إسقاط على حيز من المجال للظروف الطبيعية والمخلفات التاريخية وصراع القوى الاقتصادية وجهود التطور التقني والعبقرية الخلاقة للمهندسين المعماريين والضغوط الإدارية والعادات اليومية وكذا التطلعات الشعورية واللاشعورية للسكان << .

وأما **إيدالو** كما ورد عند (بوجو قارني، ج، 1989) فقد قال >> المدينة موجودة بالفعل، وهي الإطار الذي تمارس فيه الوظائف الاجتماعية (الثقافة، القيم، حماية الفرد) وهي العنصر الوظيفي للنظام الاقتصادي والإطار الذي تمارس فيه البرجوازية المنسجمة سلطتها، وهي كيان يستمد وحدته من الممارسة اليومية لسوق العمل <<.

فمن هذا التعريف نستنتج أن المدينة كيان مركب من عدة قوى وأن كلا ينظر إليها حسب اختصاصاته فالأفكار تتوزع على المختصين كل حسب اهتماماتهم، فالوجود الفعلي للمدينة يهم الجغرافي بشكل مباشر، أما عن الوظائف الاجتماعية فهي تخصص يعنى به علماء الاجتماع، وأما عن الأفكار الوظيفية فهي من اهتمامات علماء الاقتصاد.

وقال كل من **شارل ديلفانت** و**جون بيليتي** أن المدينة تقوم أساسا على أنها تركز وتجمع بشري بحجم أقله 2000 نسمة تقوم وتربط بينهم الأنشطة الخدماتية التي تشترك وتوافق الأنشطة الصناعية.

وقد اعتمد الكاتبان في كتابهما « Villes et urbanisme dans le monde » على ثلاثة مفاهيم أساسية لتعريف المدينة وهي:

أولا - المفهوم الإحصائي:

وهو الذي يعتبر في نظرهما الأكثر بساطة إذ أن مبدأه يتسم بالوضوح لاعتماده على الجانب الرقمي، وقال >> المدينة إذا هي تركز لمجموعة من الأشخاص على مساحة معينة وبتعداد كاف فهم يشكلون إذا كثافة مجالية، لكن وبالرغم من أن المبدأ واضح وجلي إلا أن تطبيقه يختلف حسب الدول <<.

ومن تطبيقات هذا التعريف: اعتبر المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية الفرنسية المدينة كل بلدة لها تجمع سكاني يتعدى أفراد سكانها 2000 نسمة شرط أن التباعد بين المنازل لا يتعدى 100 متر.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فان هذا التعريف أكثر تعقيدا إذ يضاف إليه عامل الدخول في نطاق الريفية، وتجدر الإشارة إلى أن القيمة الإحصائية تمتاز بعدم الثبات من دولة إلى أخرى فنجد أن 1500 نسمة تؤهل أي تجمع بشري لان يكون مدينة في هولندا، أما في الهند فنجد القيمة الإحصائية الدنيا هي 5000 نسمة.

وأكد الكاتبان أن المفهوم الإحصائي غير كاف للاعتماد عليه من أجل تأهيل التجمعات السكانية إلى مصاف المدن على افتراض كون منطقة فلاحية ذات كثافة سكانية متزايدة فإنها قد تتخطى العتبة الدنيا المؤهلة للرقى كمدينة لكنها تبقى محافظة على مميزات وسمات النطاق الريفي.

ثانيا - المفهوم الاقتصادي والوظيفي:

واعتبره الكاتبان أهم العوامل وهو إلزامية احتواء المدينة على مجموعة من الأنشطة المتفاوتة والتي يمكن لبعضها أن يكون أهم من الآخر، كما أكد الباحثان على ضرورة احتواء المدينة على الأنشطة الضرورية على اعتبار أن المدينة في حد ذاتها مكان للتبادل وتقديم الخدمات بكل أنواعها سواء للمقيمين أو غيرهم، واعتبر الباحثان أن الحد الأدنى من الوظائف التي يجب توفرها في أي منطقة كي تؤهلها إلى مدينة هي تلك الخدمات المتنوعة والمقدمة على جميع المستويات (بنوك، مكاتب، إدارات، مرافق صحية، عروض، أماكن لعب) والتي يمكن أن تكون بشكل متفاوت حسب نوع المدينة وأن هذه الخدمات والوظائف هي التي تحدد نوع المدينة (خدمانية، تجارية، صناعية، ...)، فالمدن الصناعية يكون فيها النشاط الصناعي هو الغالب كتواجد العديد من المصانع أو المناجم، كما تشهد قوة في المواصلات وخاصة المواصلات الثقيلة، أما في المدن ذات الطابع الخدماتي فنجد أن الإدارات فيها أكثر وتتركز فيها أكثر مثل العواصم، وعلى العموم فإن هذه الخدمات نجدها منتظمة أكثر وظاهرة أكثر في المدن المتطورة، وقد اعتبر الباحثان أن هذه الخدمات والوظائف يجب أن تتواجد في كل مدينة، لكن لا يمكنها أبدا أن تحدد مدينة وكمثال مساكن العمال المتواجدة على ضواحي المصانع بها هذه الخدمات لكنها لا تشكل مدنا أبدا، وزد على ذلك فقد أكد الباحثان على وجود خاصية أخرى للمدينة في حالة توفرها على الوظائف الخدماتية وهي الإيقاع الحضري، ويمتاز هذا الإيقاع الحضري بالاستمرارية وهذا لحبوية الشوارع حتى في الليل وذلك لاستمرار القيام بالوظائف على عكس التجمعات الريفية.

ثالثا - تم الاعتماد على خصائص أخرى تساهم في تحديد مفهوم المدينة (الكثافة، ارتفاع المباني والرمزية للمدينة)، وعلى الرغم من كل ما سبق إلا أن المدن الحديثة تفتقد لهذه العناصر حيث تتميز بالآثار الممتدة والكثافة السكانية البسيطة والمعالم الرمزية المنعدمة أو الموجودة بصفة مبددة، زد على ذلك اضمحلال الصفة الأثرية للمدن كما هو الحال في مدينة لوس انجلوس الأمريكية، ورغم هذا فإن التطور الحالي للعمران أعطى قيمة لمفهوم المركزية والرمزية المعمارية لا يعتبرهم الأسس المصاحبة لمعيشة السكان بالمدينة.

ومن خلال الملاحظة المتفحصة للتعاريف السابقة للمدينة يتضح لنا جليا عدم إلمامها بجوانب المدينة ككل وذلك أن كل باحث ينظر إلى المدينة من زاوية اختصاصه غاضا الطرف عن الجوانب الأخرى والعناصر الأخرى والتي قد يكون من شأنها المساس بالمعنى الحقيقي للمدينة ومنه فإننا سنتطرق إلى ذكر مجموعة من المقاربات التعريفية التي من شأنها محورة المفاهيم وفق هيكل واضحة الدلالة.

ومن بين هذه المقاربات ما قاله معاوية سعيدوني حيث صنفها إلى:

(1) -1- المقاربة الوظيفية:

تقوم هذه المقاربة على أساس التفرقة بين المدينة والريف من ناحية الوظائف السائدة مع التركيز على إبراز عنصر التكامل بينهما وهذا باعتبار أن الريف يمد المدينة بكل ما تحتاج إليه من الموارد وحتى اليد العاملة، أما المدينة فتمتاز بطابعها الخاص من الوظائف والإشعاع الثقافي. وفي حقيقة الأمر أن الريف والمدينة تختلفان عن بعضهما في أمور عدة وليس الجانب الوظيفي فقط، فقد قامت عدة دراسات هدفها رفع أستار اختلاف المدينة عن الريف لعل أهمها ما قام به الباحثان سوروكان وزيمرمان، فبعد قيامها بتحليل كل من المجتمعين الريفي والمديني (الحضري) تمكنا من تحديد الخصائص الآتية والتي بموجبها يمكن التفريق بين المجتمع الحضري (المدينة) والمجتمع الريفي:

* المهنة: يعمل غالبية سكان الريف في المجال الفلاحي مع وجود مهن أخرى وهي تلك المهن التي يحتاجها الإنسان في الريف في حياته اليومية، في نجد المجتمع الحضري يقوم على تعدد المهن، إذ يعمل أغلبية سكانه في الميدان الصناعي وما يتبعه من أنشطة كالتجارة والإدارة والحكم، وبعبارة أخرى جملة ومختصرة نقول إن سكان المدن يعملون في كل الأنشطة عدا النشاط الفلاحي.

* البيئة: يتصل أهل الريف بحكم أنشطتهم اتصالا مباشرا بالطبيعة والأرض، بينما سكان المدن منعزلون عن الطبيعة وهم أقرب إلى البيئة المشيدة من طرف الإنسان.

* حجم المجتمع: يعيش الريفيون في مجتمعات صغيرة، أما حجم المدن فهو أكبر ويتناسب تناسباً إيجابياً مع التحضر، فقد أصبح يرى في أيامنا هذه عديد المدن التي تجاوز تعداد السكان بها المليون نسمة مثل مدينة مكسيكو، لوس انجلوس، شيكاغو، القاهرة، ... الخ.

* كثافة السكان: تتميز التجمعات الريفية بانخفاض الكثافة السكانية مقارنة بالمدينة.

* تجانس السكان: يمتاز السكان الريفيون على نظرائهم من سكان المدن بأنهم أكثر تجانسا في السمات العنصرية والسيكولوجية الاجتماعية، وأوضح الباحثان أن سكان الريف لا تتغير لديهم الخصائص الاجتماعية والنفسية المكتسبة، بينما تتغير كثيرا في المدينة، وهذه الخصائص مثلا هي اللغة والأعراف وأنماط السلوك.

* التباين الاجتماعي: في المجتمع الريفي لا يظهر التباين المؤدي إلى قيام الطبقة، بينما يبدو هذا العنصر جليا في المدن، واعتبر الباحثان أن هذه الخاصية هي أهم الخصائص التي توضح الفروق الجوهرية بين المجتمعين الريفي والحضري.

*** التنقل:** لا تشهد المجتمعات الريفية حركات تنقل كبيرة من غيرها إليها ونقصد بحركات التنقل الهجرة، بينما تعرف المدينة على أنها مكان يتميز بالتنقل الاجتماعي الكثيف ولهذا فإن هذا العامل يرتبط ارتباطاً وطيداً بالتحضر.

ومما يلاحظ في أوقاتنا هذه الأعداد الكبيرة التي تهاجر من الأرياف نحو المدن بسبب ظهور عدة ظروف مشجعة كالرقي الاجتماعي وتعدد فرص العمل، لكن أحيانا ما يحدث العكس فنجد أفواجا كبيرة من سكان المدن يغادرونها إلى الأرياف وبمعدلات مرتفعة ويحدث ذلك خاصة في أوقات الكوارث والأزمات.

*** نسق التفاعل:** تتميز التفاعلات في المجتمع الريفي بالبساطة والمودة والإخلاص لأن الإنسان يتعامل مع غيره في هذه المجتمعات بدوافع إنسانية أساسا، بينما تسود المجتمع الحضري المدني العلاقات السطحية والغير شخصية القصيرة المدى والقائمة أساسا على مبدأ المصلحة والمنفعة وتتميز بالتعقيد والتداخل والشكلية في أغلب الأحيان.

(1)-2- المقاربة الديمغرافية والإحصائية:

وتعتبر المدينة المكان الذي يتركز فيه السكان حيث يشكلون كثافة مجالية، وتعد هذه المقاربة التجمعات السكانية على أنها مؤسسات سكانية بالاعتماد على العتبات الديمغرافية.

(1)-3- المقاربة السياسية:

تعتمد على مراسيم إدارية من شأنها إسناد أدوار مهمة ومميزة ضمن التسلسل الإداري للإقليم، وكمثال على ذلك التحولات التي حصلت بالجزائر خلال الحقبة الاستعمارية وما تلتها من تقسيمات إدارية متعاقبة بعد الاستقلال.

وفحوى الكلام الأخير أنه قد تترقى بعض التجمعات الحضرية إلى مصاف المدن وتوكل إليها مهام مميزة ليس لأهميتها هي وإنما لأهمية الدور الذي ستلعبه ومثاله التقسيمات إبان المرحلة الاستعمارية لتنظيم الثورة، وبعد الاستقلال شهدت الجزائر عدة تقسيمات إدارية أخرى لعل السبب الفاعل وراءها هي المشاكل الحدودية مع الدول المجاورة.

(1)-4- المقاربة الجغرافية الحضرية:

وتعتبر المدينة عنصرا مهيكلا ومقننا وذا أهمية كبيرة، وتنظر إلى المدينة من زاويتها العمرانية وهذا بالتركيز على المباني والمؤسسات ودرجة هيكلتها وتنظيم شوارعها ومدى موافقتها للقوانين العمرانية التي تخص شغل الأراضي والطراز المعماري والعمراني، ... الخ. ويعتقد أصحاب هذه النظرة - وهم الجغرافيون الحضريون - أن أهم عنصر في المدينة هو التنظيم المجالي، ويوضحون أنه يركز على ثلاثة أسس تشمل (المجال، السكن، دور المدن) ويتجلى هذا في تعدد البنى الداخلية وتنوع الأشكال العمرانية والعلاقات التبادلية المتنوعة، لكن هذه النظرة طرأ عليها تغيير كبير في ظل الحركية المعرفية الواسعة والمتماشية مع التغييرات المجتمعاتية الكبيرة، ففي السابق كان الاهتمام منصبا على المظاهر الملموسة كالموقع، مخطط المدينة وأشكال استعمال الأرض، وارتقت بعد ذلك إلى الاهتمام بأصول السكان ومميزاتهم في

ظل ما يعرف حالياً بالجغرافيا البشرية، ومن بعدها قام التركيز على أنماط العيش وسمات التحضر التي تمايز سكان المدن عن غيرهم من سكان الريف تحت ما يعرف باسم علم الاجتماع الحضري، وأخيراً أصبح الاهتمام منصبا على تمييز وظائف المدينة والبحث عن أسس التنمية الحضرية ومعرفة دور المدينة الإقليمية، وعن شبكات وهياكل الأنوية القديمة، وقد ظهرت عدة اتجاهات معتمدة في منهج البحث الخاص بالجغرافيين:

* اتجاه يهتم بالمظاهر النظرية وهذا عند الباحثين الألمان والأمريكان، إذ يركزون في دراساتهم على موضوع المركزية والشبكات وترتيبها، ومن أبرز روادهم كريستالير (1933).

* اتجاه يهتم بالتطور التاريخي - خصوصا عند السوفييت - ويقترحون تصنيفات وظيفية كنتيجة لتغيرات جذرية تحدث على مستوى المدن.

* اتجاه يهتم بمونوغرافيا المدن من خلال الدراسات المقارنة على مستوى الإطار الإقليمي، وقد تبنى هذا الاتجاه الباحثون الفرنسيون.

وبالرغم من ذكر كل التعاريف السابقة إلا أن تعريف المدينة بقي يتسم بالغموض والتعقيد والنقص، وقال (خلف الله، ب، 2005) >> وحتى بالجمع فيما بينها ترى أنك قد أهملت العديد من جوانب المدينة، وسبب هذا التعقيد والغموض مرده إلى التعقيد في المدينة بحد ذاتها على اعتبار أنها في تطور وحراك دائم وبخاصة في أدوارها ووظائفها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها من جهة، وإطارها الفيزيائي من جهة أخرى، وبذلك تفتقد للضبط في الاصطلاحات التعريفية مع الحراك المستمر والتميز بالصعوبة والتعقيد <<.

ومفاد الكلام السابق أن حركية المدينة المتزايدة والمعقدة جعلت من التعاريف غير متطابقة مع الواقع أو ناقصة كون المدينة قد تغيرت فيها عدة أدوار، فتلك التعاريف كانت مطابقة للواقع في الزمن الذي قيلت فيه أي في الوقت الذي سبق حركية المدينة والتغير الذي طرأ على أدوارها ووظائفها، ومنه نخلص إلى أن تعاريف المدينة غير ثابتة، بل هي متغيرة ومتناسبة مع حال المدينة، وقد وصف Rosnay المدينة على أنها مجموعة معقدة من العناصر فيما بينها، منظمة حول هدف، أما Lowry فعدها نسقا عاما معقدا أين الكل يؤثر على الكل.

2- ظهور وتأسيس المدن :

لقد عرفت المدن في الآونة الأخيرة حركية عالية الوتيرة بفضل ما تعرفه من نهوض كبير في شتى المجالات وخاصة الاقتصادية منها دفع بأفواج كبيرة من السكان بالنزوح نحوها من أجل تحقيق ورفع مستوى معيشتهم.

إن التطور العمراني يستند أساسا وأكثر فأكثر على الإرث العمراني والمعماري والذي يصبح الهدف الأساسي والمهم للتطور العمراني للمدن والمجتمعات، ومن هذا المنطلق فإن معرفة تاريخ الإطار المبني هو الكفيل لإجراء دراسة معمقة، ومما لا شك فيه أن لكل مدينة دوافع وأسباب نشأة، والملاحظ هو عدم تسجيل فروق واختلافات كبيرة ومتفاوتة في أقوال العلماء والباحثين حول هذه الدوافع وخاصة إذا ما تم ربطها بالوثائق التاريخية أو العناصر الأثرية التي تم العثور عليها إثر الحفريات الأثرية، فنتأسس هذه المجتمعات لدوافع معينة وبعدها معين من السكان، ثم ومع مرور الزمن تبدأ عمليات توسع تدريجية للتجمعات السكانية على شكل توسعات محيطية على حدود المدن والتجمعات الموجودة، كما تشهد عمليات تملك للأراضي واندماج بين السكان، وهكذا فإننا نجد أن حجم التجمعات السكانية ينمو ويتطور بمرور الزمن وقد تظهر عوامل أخرى قد تطغى على الدافع الأساسي المشكل للمدينة وتهيمن عليه، إذ بالملاحظة نرى أن هناك عوامل تدفع لإنشاء مدن قد تزول مع الأيام مثل تأسيس مدينة من أجل العامل الدفاعي فبالاستقرار قد يزول هذا العامل، وهناك عوامل أخرى ملازمة للمدينة لعل أبرزها العامل الديني مثل مدينة مكة المكرمة فقد استهانت باقية مع الأيام، وعموما ترى **بوجو قارني** أن العوامل المؤسسة للمدن ثلاثة اقتصادية وسياسية ودفاعية:

فالاقتصادية منها هي من زاوية نظر الماركسيين الذين يرجعون نشأة المدن إلى ارتقاء نوع العمل وتطوره، حيث تكمن البداية بالقطاع الفلاحي الذي يخصص جله للاستهلاك الخاص، ثم يأخذ تدريجيا في النمو والتنوع وينشط إلى جانبها النشاط التجاري وترويج النقود الذي يمتد إلى تخوم المدينة، وتظهر حركات النقل وتتوسع التعاملات التجارية وتكثر الوظائف وتزيد الثروات عند الأشخاص وترتفع عمليات التملك للأراضي والاستثمارات، فتنمو المدن وتتطور وتزدهر ويحصل نوع من الاستقرار تتولد معه الخدمات الأساسية للسكان، ومجمل القول إن أساس ديمومة الحضارات وبقائها هو الازدهار الاقتصادي.

كما أكدت الباحثة أن العامل الاقتصادي يساهم وبشكل فاعل في نشأة مدن أخرى ذات تخصص آخر بفعل الصناعة وذلك ابتداء من بريطانيا 1870م، حيث أصبحت المدن تتخصص في مجال ما (الصناعة الثقيلة، النسيج، ...)، ومنه خلصت الباحثة أن العامل الاقتصادي ذا فعالية كبرى في نشأة المدن وتطورها خصوصا إذا ما اشترك بعامل الصناعة والتجارة لإسهامتهما الكبيرة في الازدهار الاقتصادي.

أما العامل الثاني فهو العامل السياسي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً باستقرار المدن، فالاطمئنان والتحكم الجيد في تسيير أمور السكان تنشأ من جرائها تجمعات سكانية وتنمو فيها الإدارة وتنوع بها الخدمات ويزدهر فيها الاستثمار والإنتاج، فالسياسة أدت إلى بناء العديد من المدن، فالمستعمر كان ينشأ مدناً ويوكل إليها مهمة العاصمة لتسهيل السيطرة على الدول، كما أن السياسة الحديثة وقراراتها البراقة تساهم في بناء مدن جديدة ذات حياة عصرية أسعد وأسهل ذات مساكن جديدة وتجهيزات ملائمة بمسافات قريبة بين العمل والإقامة ومجهزة بمجالات خضراء وحركة منظمة ومتحكم بها بين حركة الراجلين والحركة الميكانيكية.

وأما العامل الثالث وهو العامل الدفاعي فإن المدن التي نشأت بفعل هذا العامل تغلب عليها النظرة الإستراتيجية التي تكاد تخلو من العلاقات الاقتصادية مثل المدن القديمة حيث كانت تؤسس في أعالي التلال لتحقيق المنعة أو المدن المؤسسة لحراسة الحدود، وما يلاحظ على هذه المدن هو أن مصيرها لا يبقى مرتبطاً دائماً بما أنشأت له، بل إنها تتغير مع الوقت وتصبح مدناً تنمو نمواً عادياً كغيرها من المدن وخاصة إن زال الدافع الذي أسست من أجله ولم تستطع أن تثبت وتتأقلم مع التقلبات وتعاقبات نمو الوظائف الأخرى فيها.

وقد قام الدكتور **(خلف الله، ب، 2005)** بتحديد دوافع ظهور المدن وأكد أنه قد يجتمع أكثر من عامل واحد في تأسيس مدينة ما، كما أوضح إمكانية تجلي العوامل المؤثرة في تأسيس المدينة وظهورها على مستوى النسيج العمراني للمدينة كما يمكن أن تكون العكس بحيث نضطر إلى العنصر التحليلي لإبرازها، وهذه العوامل هي:

(2) - 1- العوامل الدفاعية:

ويعتبر هذا العامل من أقدم العوامل التي أدت إلى إنشاء المدن والحوضر، فالبدائية كانت مع إنشاء المأوى ليكون سكناً للإنسان يحتمي فيه من الخطر المتعدد الذي يحقد به، ثم عند بداية الاجتماع صار الإنسان يبحث عن المواقع الإستراتيجية التي تمنحه الأمان لبناء المدن والدفاع عنها، فالمدن قديماً غالباً ما كانت تقام على قمم التلال العالية (الصورة 1-1) المحاطة بالسهول المنبسطة لتحسين مستوى الرقابة وتدعيم الحماية إضافة إلى حفر الخنادق العميقة المحيطة بالمدن وإنشاء القلاع وإحاطتها بالأسوار العالية المنيعة مثل ما هو عليه الحال في أغلب المدن اليونانية والرومانية.



الصورة (1-1): منظر عام لقصر إيغزر- تيميمون -
المصدر: الباحث 2009.

(2) -2- العوامل الصناعية:

وهي تلك العوامل التي دفعت المدن للمركز حول أماكن تواجد المواد الأولية كالحديد والفحم وتوفر اليد العاملة، فكانت المواقع تختار حسب هذه العوامل، وأما الوقت الحالي ومع التطور المشهود في وسائل النقل والاتصالات أضحت هناك حرية في تخطيط المدن وتلاشت إلزامية الربط بين موقعي العمل والسكن، وفي أيامنا هذه أصبح النفط أهم عامل لظهور المدن وتطورها والمر واضح وجلي في دول الخليج العربي وروسيا.

(2) -3- العوامل التجارية:

وتنشأ المدن التجارية على مستوى خطو التجارة، حيث تعتبر هذه المدن ملتقى للخطوط التجارية ونقاط استراحة واستعداد لمواصل السفر، فنجد على مستوى هذه المدن مرافق خاصة كالمخازن للاستراحة، وهذه المدن كما أوضح الدكتور خلف الله >> تكثر في الطريق الرابط بين العالم العربي والإسلامي والهند كما هو الحال مع دمشق واسطنبول، وقامت على مرافق السفن أسواق تجارية كبرى وصناعات تحويلية مثل ما هو الحال في المدن الإيطالية والإسبانية الساحلية وكل ساحل البحر الأبيض المتوسط.<<

(2) -4- العوامل السياحية:

ونشأت هذه المدن للراحة والاستجمام بعد ما أحدثته الثورة الصناعية من إختلالات، فأصبح الإنسان يبحث عن أماكن للراحة والهدوء من أجل الاسترخاء، ومنه فقد أقيمت عدة مدن لهذا الغرض لاسيما تلك التي تمتاز بجو جميل ومناظر خلابة كما هو الحال مثلا في مصايف فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ومرافق ومركبات بلبنان والجزائر، ويدخل في هذه العوامل أيضا المدن المقامة من أجل الاستشفاء والاستجمام والنقاهاة ونعني بها المدن المتواجدة في أماكن تواجد الحمامات المعدنية مثل بوحنيقية وحمام ريغة، ومدن أخرى للمتعة والتجوال مثل شواطئ الأزور بفرنسا ونادي الصنوبر وتيبازة بالجزائر.

(2) -5- العوامل الدينية:

وهو من أهم العوامل الدافعة لإنشاء المدن وتطورها، فقد ظهرت عدة مدن لهذه العوامل في شتى بقاع العالم >> فقد ظهرت مدينة مكة مثلا حول البيت الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام، وبيت المقدس حول المسجد الأقصى الذي بناه يعقوب عليه السلام، كما قامت تاج محل حول ضريح أميرة هندية، وكربلاء والكاظمية حول قبور آل البيت الذين قتلوا في معارك مختلفة بسبب الفتن الدينية<<

فهذه المدن لها صيغة الجذب للسياح فتزيد بذلك النشاطات المتعلقة بالمأكل والمشرب والمسكن، لكن ما يلاحظ عن هذه المدن هو اكتسائها للصيغة الموسمية فالكثير منها لها مواسم ازدحام كبرى مثل مكة في مواسم الحج أثناء أداء ركن الحج ورمضان أثناء أداء العمرة، وكربلاء والنجف أثناء إقامة الحسينيات الشيعية في عاشوراء، كما أن لهذه المدن ميزة أخرى

وهي الخصوصية فلا يقصدها إلا أتباع ذلك الدين أو أنصار المذهب، فمكة لا يقصدها إلا المسلمون، وكربلاء لا يقصدها إلا الشيعة.

(2) -6- العوامل السياسية والإدارية:

وهي المدن التي تنشأ بدوافع سياسية وإدارية، وهو حل تلجأ إليه الدول من أجل تخفيف العبء عن المدن العريقة التي أصبحت تعجز عن الاستمرار في تأدية دور الريادة في الاقتصاد والسياسة للبلاد، كما أن للقرارات السياسية والإدارية دوراً في إنشاء الأقاليم الكبيرة مثل تقسيم الجزائر إلى ولايات كبرى إبان المرحلة التحريرية وجعل عاصمة لكل ولاية لتسهيل العمل العسكري والجهادي ضد العدو المحتل.

>> وعليه يمكن استخلاص أن دوافع ومسببات نشوء المدن وكما جاء عند (مدوكي، م، 2010) يعود إلى صيغة مرتبطة بأهم المتطلبات المعيشية للإنسان وما يهدف إليه من تحقيق للغايات التي تتيح له فرصة الرقي بنفسه وبمحيطه وتسهيل عليه التعامل مع المجتمعات الإنسانية الأخرى في حدود حرته وديمومة سمو مكانته إزاء الآخرين <<.

كما نؤكد على أن العوامل السالفة الذكر يمكن أن يجتمع العديد منها في تأسيس مدينة واحدة، كما يمكن أن تتأسس المدينة لعامل واحد منها فقط.

3 - (3) - تصنيف المدن :

لقد تعرضنا في كلامنا السابق إلى العوامل الدافعة لنشوء المدن، وبالنظر إلى طبيعة التجمعات السكانية المكونة لها واختلاف خصائصها ونشاطاتها فإننا نجد أنفسنا أمام تساؤل مهم يدفعنا إلى التعرض إلى التصنيفات الخاصة بالمدن، ومما لا شك فيه أن هذا العنصر يفيد كثيراً في زيادة فهم طبيعة المدن وكما قال **بيري** >> نصف الأشياء حتى يمكننا التعرف أكثر على موضعها، فالمعرفة والفهم والتشكيل أو التعديل للمستقبل كل هذه دوافع للمحاولة <<.

(3) -1- حسب علماء الاجتماع:

ونورد ما جاء عند (عاطف غيث، م، 1987) أن أبرز تصنيف في هذا المجال ما قام به

جويرج بحيث قسم المجتمعات إلى نماذج ثلاثة هي:

* **الفولك**: وهو تجمع صغير مكثف بذاته غير متمدن ويفتقر إلى تقسيم العمل الحقيقي والتكنولوجيا المعقدة ولا يمكن أن تنشأ عنه بلدان ولا مدن.

* **المجتمع الإقطاعي**: وهو مجتمع غير صناعي، متمدن ويملك فائضاً في الزراعة، ويضم طبقة عليا تعيش في المدن، ويمتاز بكبر في الحجم وكثافة سكانية عالية وغير متجانسة، كما أنه يضم طبقة متخصصة في الأعمال غير الزراعية وحجمها أكبر منه في القرى.

* **المجتمع الحضري الصناعي**: ويضم المدن الصناعية التي تعتمد على المعرفة الفنية وتستخدم مصادر متعددة للطاقة وتضم تنظيمات كبيرة الحجم.

كما قام ويرث بتصنيف خاص بالمدن الصناعية معتمدا على حجمها وموقعها ووظائفها الاقتصادية وعمرها، فالحجم يظهر جليا أن المدن تمتاز بالكثافة وعدم التجانس، أما العمر فهو دليل على مدى نجاح وفشل التوازن في الاقتصاديات المميزة، كما تجدر الإشارة إلى أنه ثمة العديد ممن اهتم بتصنيف المدن الصناعية أمثال (موزر وسكوت) بانجلترا، و(هادون وبورجاتا) بالولايات المتحدة، وممن تخصص في تصنيف المدن قبل الصناعية هما رادفيلد وسينجر اللذين قاما بتقسيمها إلى قسمين:

* مدن إدارية وثقافية: وهي المدن الاستعمارية.

* مدن تجارية.

وأما ماكس فيبر فقد قدم تصنيفا آخر لهذه المدن حيث استعان بمحاكاة متعددة منها موقع المدينة ومدى اعتمادها على غيرها من المدن وكذا أثر الحركات الإصلاحية وتطور ضواحيها والترتيب الطبقي الاجتماعي فيها وسيطرة المدينة على مصدر مواردها وأسلوب استغلالها للأراضي.

(3-2- حسب الجغرافيين:

وقد اعتمدوا في تصنيفهم للمدن على عدة أسس كما جاءت عند (بوجو قارني، ج، 1989):

(3-2-1 - الأسس التحليلية:

ومن أشهرها تصنيف وارسو الذي ميز ستة (06) فئات كبرى للمدن والتي بدورها تكون

مقسمة إلى عدة أقسام ثانوية، وهذه الفئات هي:

* الفئة الأولى: وتشمل المدن الإدارية.

* الفئة الثانية: وتشمل المدن الدفاعية والحصون والقواعد العسكرية ومدن الثكنات.

* الفئة الثالثة: وتشمل المدن الثقافية مثل المدن الجامعية والمعابد ومراكز الفن والحج والمراكز الدينية.

* الفئة الرابعة: وهي للإنتاج وتشمل المدن الصناعية.

* الفئة الخامسة: وتشمل مدن المواصلات وتعد الأكثر تعقيدا وتضم ثلاثة أقسام ثانوية:

- الجمع: وتضم مدن المناجم والصيد والغابات والإبداع.

- العبور والتحويل: وتضم مدن الأسواق التي توجد على طول الحدود، ومدن الجسور.

- مدن التوزيع.

* الفئة السادسة: وتشمل مدن التسلية ومدن الاستجمام والسياحة والعطل.

وكذلك نجد تصنيف هوسن >> ... هذا التصنيف يبين المساوي الواضحة لهذه الصيغ التي

أخذت مجموعة من المعطيات المميزة والهامة لكن خالية من الانسجام أو التجانس التام،

فالوظائف الحضرية الموصوفة هنا هي مثل السكن، ومراكز إنشاء الاتصالات بين المجموعات

البشرية، والنقل والحكومة والإدارة والتربية والتعليم والعلاقات العرقية والصحة والعمران

والهندسة المعمارية والصناعة، <<...>>.

وقد قالت (بوجو قارني، ج، 1989) معلقة: >> وعليه فإن قائمة هوسن تستدعي جلب الانتباه لسلسلة من الوظائف التي يمكن اعتبارها اجتماعية أكثر منها جغرافية، إذ لديها نتائج معتبرة على المجال العمراني لا يمكن للجغرافي تجاهلها مثل ضرورة الاتصالات داخل المجموعات البشرية ذات الوحدات الصغيرة، والصعوبات الناجمة عن هذا البحث خاصة العلاقات العرقية ومسؤولية العمران في تصاعد العنف وأهمية دور المدينة في نمو العالم الثالث... <<.

(3-2-2 - الأسس الوصفية التفسيرية:

إن هذا النوع من التصنيف يحصي ويحسب كما ورد عند (بوجو قارني، ج، 1989) كل المظاهر وجوانب العمل داخل وخارج المدينة، ثم يعيد جمع هذه المظاهر تحت عناوين أخرى كبرى، أي يعطي أمثلة لكل عنوان وظيفي، وهذه التصنيفات تصف ما في الموضوع والموقع أو هيئة المدينة والذي يؤدي إلى تمييز الوظائف الأصلية أو السائدة والمظاهر الداخلية الموجهة نحو الخارج، كما أنها تبحث عن السبب الذي أدى إلى توقيع هذه أو تلك الحرفة النشيطة في هذا الوضع، وتنفرد بتمثيلها لأحد مظاهر المنهج الاستقرائي الجغرافي الذي ينتقل من الجزئي إلى الكلي لأنها تنطلق من سلسلة من الأمثلة الوصفية لاستخراج خلاصة النمط التطوري. ومن أشهر هذه التصنيفات تصنيف جورج شابو الذي اقترحه في كتابه >> دراسة في جغرافية الحضرية << حيث صنف الوظائف الكبرى إلى ستة (06) مجموعات:

* الوظيفة العسكرية:

* الوظيفة التجارية: وتضم أشكالاً بدائية تجارية قارية كبرى، موانئ بحرية ومطارات ومراكز تجارية.

* الوظيفة الصناعية: وتضم المدن المنجمية والصناعات التحويلية.

* الوظيفة الثقافية: وتضم مدن الجامعات والمراكز الأدبية والفنية ومدن المتاحف والحفلات والمؤتمرات.

* وظيفة الاستقبال: وتضم مدن المستشفيات والاستجمام والتسليّة والسياحة.

* الوظيفة الإدارية والسياسية: وتضم المدن التي تلعب أدواراً إدارية كالعواصم.

فهذا التصنيف ذو قيمة كبيرة إذ يقوم على تجارب واسعة التطبيق خصوصاً عندما يعطي صورة واقعية لحياة المدن بوصف عام لمميزاتها وقواعد تطورها.

وعلى العموم فإن شابو في تصنيفه يركز فقط على الحرفة السائدة وعلى العامل المقبول

موضوعياً حسب الشهرة التقليدية لمدينة معينة أو حسب عامل بارز، كما يمكن ظهور عدة

تصنيفات في المدن لأنها تجمع بين العديد من الوظائف لكن مع اختلاف نسبي في أهمية النشاطات المعتبرة، وهنا يبقى البحث دائماً على بعض النماذج للقياسات المقارنة.

(3-2-3) - التصنيف الشامل:

ويمتاز بكونه أكثر دقة وهذا لاستعماله لعدد أكبر من المتغيرات المعبرة عن المقارنة، والاستعانة بلغة الإعلام الآلي والتصنيف التحليلي، وهو أنواع:

*** تصنيف المدن حسب مقاطعات النشاط:**

ويهتم فيه بالمقاطعة وأهم نشاطاتها ويتم ترتيبها وتحليلها ومقارنتها وفق ما تكتسبه المدن من استراتيجيات اقتصادية ووظيفية تميزها عما يحيط بها.

*** تصنيف المدن حسب البنية الاجتماعية الوظيفية:**

حيث يؤخذ في الحسبان تصنيف المدن ومختلف نشاطات العمال ضمن القطاعات بشرط عدم الاعتماد على عددهم فقط، إذ لا يمكن أن يكون هو المتغير الوحيد المعتمد في هذا التصنيف إذ يمكن اخذ متغيرات أخرى مثل المستوى الاجتماعي الوظيفي، لأنه في الغالب يظهر الترابط الوثيق بين مختلف أصناف النشاطات الاقتصادية.

(3-3-3) حسب العمرانيين:

إن المبحث الخاص بإعطاء تصنيف محدد للمدينة يكتسي درجة من الصعوبة مقدارها كتلك التي تعترض المبحث الخاص بتعريف المدينة، ولذا فقد لجأ العمرانيون إلى تقسيم المدينة إلى أقسام عدة أهمها:

(3-3-1) - تقسيم المدن من حيث الحجم:

وهو من أبسطها كما قال (فاروق القباني. ه، عابدين. ي، 2007) ويستخدم غالبا للتفرقة بين الحضر والريف، ومن أشهرها التقسيم الذي قام به كل من **دنكان** و**ريس** حيث صنفا المدن الأمريكية إلى أحد عشر (11) نموذجا حسب الحجم، ونجد كذلك تقسيم **فيليب هاوزر** الذي قسم المدن إلى مدن صناعية وأخرى ما قبل صناعية وميتروبولية ونجد كذلك التقسيمات التالية وفق هذا التقسيم:

*** المدينة الصغيرة (town):**

وهي البلدة أو المدينة الصغيرة التي تتميز عن الوحدات الصغرى المعروفة بالقرى والوحدات الكبرى المعروفة بالمدن، وهي تتمتع بموقع حضري يسيطر على المنطقة الريفية، كما نجدها تتمتع بأهمية ثقافية كبيرة ويتم على مستواها ممارسة التجارة البسيطة الداخلية.

*** المدينة الصناعية (city):**

وتتميز بتقسيم العمل، وينتظم وجودها حول الإنتاج الذي توفره، وهي تتمتع بموقع حضري يسيطر على الإقليم برمه ريفه وحضره.

*** المدينة (Metropolitan):**

وهي المدينة العظمى أو الكبيرة ولها خصائص المدينة الصناعية.

(3-3-2 - تقسيم المدن من حيث تعداد السكان:

ويعتبر التقسيم الأكثر شيوعاً إذ تستخدمه وتطبقه معظم الدول في تقسيماتها الإدارية، ففي فرنسا تعتبر المدينة كل تجمع حضري يضم 2000 نسمة، وما قل عنه فهو يعتبر قرية، وأما في أمريكا فان العتبة تصل إلى 2500 نسمة، وفي بلجيكا 5000 نسمة.

(3-3-3 - تقسيم المدن حسب التطور التاريخي:

وله دور كبير في تتبع تطور الحضارات وتعاقبها والتي تؤثر على منحى تطور المدينة مستقبلاً.

(3-3-4 - تقسيم المدن من حيث متغيراتها الاقتصادية:

قام **بريس** بتقسيم المدن إلى صناعية، إدارية وتجارية، وأكد **لمبارد** أن الصناعة السائدة كانت أساس تصنيف المدن، كما يعود نمو هذه المدن إلى نمو اقتصادها، وصنف **هاريس** و**أولمان** المدن حسب موقعها المركزي إلى مدن النقل ومدن ذات وظائف متخصصة، كما قام **كارل ماركس** بتصنيف المدن إلى مدن العبيد ومدن الإقطاعية ومدن الرأسمالية ومدن الاشتراكية، كما أشار **هوزليتز** إلى وظيفة المدينة في ضوء نموها الاقتصادي وصنف المدن إلى قسمين: * المدن المنتجة: والتي تتميز بالنمو الاقتصادي الدائم. * المدن الطفيلية: وهي التي يقتصر دورها على الاستهلاك.

(3-3-5 - تقسيم المدن من حيث درجة تقدمها:

وهو التقسيم الذي قام به **تورنديك** وأساسه مبني على نوعية وكمية الخدمات التي تقدمها المدينة للسكان، فقام بجمع وتصنيف الخدمات إلى (37) نوع تجمعها (05) أقسام كبرى تتجلى في الصحة، التعليم، الترويح، الاقتصاد والنثریات، كما اكتشف من هذه الدراسة أنه ثمة ارتباط عام بين التقدم والتخلف أساسه التعليم، فكلما ارتفعت نسبة التعليم كانت حالة السكان الاقتصادية والصحية والترفيهية أفضل.

(3-3-6 - تقسيم المدن من حيث الأعمال التي تؤديها:

وأشهر هذه التقسيمات ما قام به **جينيسيت هلبيرت** والتي صنفت المدن إلى ستة (06) أصناف وهذا حسب النشاط الغالب فيها، واستخرجت لنا: المدن الصناعية، المدن التجارية، المدن السياسية، المدن الثقافية، المدن الصحية والترفيهية والمدن المتعددة الأغراض. وفي خاتمة هذا المبحث نجد أنه يكتسي نوعاً من الغموض والإبهام وأن كل من قام بتصنيف معين للمدن إنما قام به على أساس متطلبات اختصاصه بصيغة تحليلية توافق تطلعات الاختصاص.

4- خصائص المدن:

ويعتبر أهم عنصر من عناصر هذه الدراسة إذ إن رحي دراستنا يدور عليه فالمدن وبالنظر للتعاقبات التاريخية والأحداث التي تمر عليها فإنها تشهد نوعا من التغيير قد يكون جذريا بحيث يزيل معالم الهوية والثقافة التي سبقته بالكلية وهو ما حاول المستعمر القيام به عند دخوله إلى أغلب مدن العالم الإسلامي عموما والعربي خصوصا وبصفة أكبر وأخص ما قام به المستعمر الفرنسي في أراضي الجزائر، وقد يكون التغيير طفيفا هدفه ترك بصمة تدل على الصانع ونجد هذا غالبا فيما قام به أجيال الخلفاء الذين تعاقبوا على إدارة شؤون الدولة الإسلامية مثل الأمويين والعباسيين والفاطميين ومن بعدهم، بحيث تركت كل حقبة منها أثارا تدل عليها دون طمس ما سبقها بل زادت في خزانة التراث الإسلامي تحفا تحسب له لا عليه ولا زالت إلى اليوم دليل إبداع وتقدم المسلمين آنذاك وعلو كعبهم في عالم البناء والعمران، ومنه فإن التطرق إلى خصائص المدن يعد خطوة لا بد منها في دراستنا هذه:

4-1- المدن العتيقة:

وتمتاز بخاصية الوحودية والتي نجدها تتجسد في النقاط الآتية:

* النسق الرتبي للطرق (الطرق الرئيسية، الطرق الثانوية وصولا إلى الدروب).

* الوحودية في المباني وعلاقتها بالروابط العائلية ومواد البناء المحلية، الفتحات المناسبة من حيث الأشكال والأبعاد والمواقع.

* الخاصية المقترنة بالوقت حيث إن تطور هذه المدن يمتاز بالصفة البطيئة عبر فترات متباعدة من الوقت مما يجعلها تكتسي طابعا من الوحدة الشكلية للتجمع العمراني.

وسوف نتعرض لخصائص هذا النوع من المدن بإسهاب في فصل لاحق في خطوة مقارنة بينه وبين المدن الاستعمارية مدار بحثنا.

4-2- المدن الكلاسيكية:

وتمتاز بثلاث (03) مجموعات خاصة بالفن العمراني:

* التجمعات المخلوقة: وهي تتعلق بالمباني المخصصة للملوك ومباني السلطة الوطنية كواشنطن بأمريكا وتاج محل بالهند.

* التجمعات العمرانية المجاورة للتجمعات القديمة: كنانس بفرنسا وبرلين بألمانيا.

* التجمعات المعادة الناتجة عن التدخلات التي تمس الأنسجة العمرانية: وأبرزها أعمال هوصمان على باريس في عهد الإمبراطور نابليون الثالث.

(4) -3- المدن الصناعية:

ونعني بها تلك التي بدأ ظهورها يتجلى مع الثورة الصناعية وبروز المكننة، واتسمت هذه الحقبة بالانتشار الواسع للعمليات العمرانية وظهور ما يسمى بالمدن الصناعية والتي نجدها على نوعين حسب الدول المنتمة إليها:

* المدن الصناعية ضمن دول العالم الثالث: وتمتاز بالاكتظاظ وعدم التنظيم وتكون محاطة بالأحياء القصدية.

* المدن الصناعية ضمن الدول المتقدمة: تمتاز بوجود جزيرات غير صحية وأماكن معزولة وضواحي آخذة في النمو مما خلق ما يسمى بالخلل الوظيفي.

(5) - أنماط المدن:

قام الباحثان (Pelletier, J & Delfante, Ch. 2000) بتمييز أنماط المدن المعاصرة وهذا وفقا لتموضعها على الخارطة الجيوسياسية في العالم، وقاما بتصنيف خمسة (05) أنماط عامة من المدن وهي:

(5) -1- مدن العالم الغربي (أوربا):

وهي ذات جذور ضاربة في التاريخ تعود إلى آلاف السنين كما هو الحال مع أثينا عاصمة بلاد الإغريق، أما الآن فهناك العواصم ذات التفوق السياسي والنهضة الكبيرة كباريس ولندن، بحيث إن الكل يشتمل على ملامح نمطية متقاربة مع وجود لبعض الاختلافات التي تعزى لتغير الموقع، حيث نميز الحضور القوي للإرث التاريخي الذي شهد العديد من التغيرات فحصل ما يسمى بملامح التجاور لمختلف الأنسجة العمرانية، فنجد أنسجة متموضعة فوق بعضها البعض، حيث نميز الشكل المنتظم من العهد الروماني وتليها تداخل الأشكال العشوائية من حقبة القرون الوسطى ومن ثمة تخترقها الأشكال المنتظمة الشطرنجية التي تأسست خلال القرنين الثامن عشر (18) والتاسع عشر (19) الميلادي وصولا إلى المخططات المتطورة للقرن العشرين (20)، فتكونت العديد من الفروق على مستوى المخططات من حيث شكل النسيج وارتفاع المباني وحجمها، وكذلك نميز السياسة العمرانية الخاصة بالدولة تحت إمرة السلطات العمومية من خلال تطبيقات القوانين وفرض الرقابة والحرص على تطبيقها وتسييرها بحيث نجد أن أغلب الدول الأوروبية تفرض عدة التزامات لعل أهمها:

* تأطير كل العمليات العمرانية من خلال تطبيق القوانين على مستوى كل من (POS/SDAU).

* العمليات المباشرة في البناء.

* توفير السكنات الاجتماعية من خلال هيئات ودواوين مختلفة.

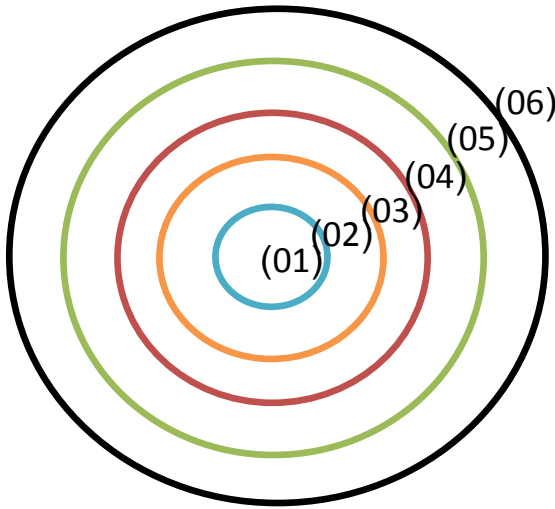
* وضع مؤسسات للتهيئة تشرف على التكفل بالمجالات الخارجية.

وبذلك فإن المدن في الغرب تمتاز بهيكلية عمرانية على شكل حلقات تستند على المركز الأول للمدينة مع وجود بعض التشوهات الناتجة عن التضاريس أو لعوائق وعوامل أخرى.

وقد قام الباحثان (Pelletier, J & Delfante, Ch. 2000) بتحديد الحلقات المكونة للمدينة والتي تتمثل في:

- * المركز العتيق: والذي يتسم بالكثافة والغنى بالمعالم الأثرية وبه المراكز الإدارية.
- * الحلقة الأولى: وتكون بعد المركز وهي تمثل الأرباض.
- * الحلقة الثانية: وهي الضواحي وتمتاز بكثافة جيدة وبتواصل جيد بكل من المركز والأرباض.
- * الحلقة الثالثة: وهي تحدد المجال الشبه عمراني يمتاز بخصائصه الهجينة بين الريف والمدينة وبه كثافة متوسطة وتسود فيه الوظيفة الزراعية.

وبإمعان النظر في هذا التقسيم نجده مطابقا إلى حد كبير ومؤيدا لأصحاب المدرسة الحضرية في تعريفهم وتقسيمهم للمدينة، حيث تقوم فكرة رواد هذه المدرسة أمثال برجس وريدفيلد وورت على الأنماط والعمليات التي تشملها مرحلة الانتقال من الزراعة إلى الصناعة حيث يعتبرون أن المدينة تشكل قوة إيجابية في التغيير الاجتماعي، ويرى أصحاب هذه المدرسة أن المدينة غالبا ما تنشأ بنشاط معين ومحدود ومع مرور الوقت يأخذ في النمو والتطور، وبالضغط على النطاق الأول وهو المركزي فإنه يؤدي إلى توسعه تدريجيا على شكل حلقات، كما يرى أصحاب هذه المدرسة أن هذه النطاقات تمتاز بالحركية وعدم الثبات مع زيادة الضغط على النطاق فإنه يضطر إلى التوسع على حساب النطاق الذي يليه، ويرى أنصار هذا الاتجاه إمكانية تقسيم المدينة إلى نطاقات ستة (06) أساسية هي:



- (01)- نطاق مركزي.
- (02)- نطاق الصناعات.
- (03)- نطاق انتقالي.
- (04)- نطاق مساكن العمال.
- (05)- نطاق ذوي الدخل المتوسط.
- (06)- نطاق الضواحي.

الشكل (1-I): نموذج النطاق الدائري لبرجس.
المصدر: الديب، ب، 2009.

(5) -2- مدن أمريكا الشمالية:

وهي مدن تعد حديثة من حيث نشأتها إذا ما قورنت بمدن القارة الأوروبية، وعموما فهي تتميز بالتطور الكبير في التقنيات العمرانية والهندسية، مما ترتب عنه مساحات وتجمعات حضرية كبيرة وغاية في التعقيد تغلب عليها ناطحات السحاب ذات الارتفاعات الشاهقة.

(5) -3- مدن الدول الاشتراكية:

بسبب إيديولوجيات الطابع الجماعي وسياسة الاشتراك في كل شيء التي ساهمت وأدت إلى إفراغ الريف وانتقال التركيز إلى مدن الصناعات فإن هذه المدن كانت تتوسع بشكل كبير تحت وطأة تخطيط صارم يهدف إلى توحيد المدن ولو بصفة نظرية لكل من شكل التوسع، البنائيات

- الجديدة ووسائل المواصلات وهذا وفقا للأهداف الديموغرافية والمخططات التطورية المسطرة من طرف الدولة، والمثال الأحسن يوجد في الاتحاد السوفياتي قطب الاشتراكية، حيث اعتمد في تعمير العاصمة موسكو على قرارات مجلسي الحكومة والهيئة المركزية للدولة سنة 1971م، والهدف من كل هذا هو الوصول إلى:
- * المحافظة على التراث والمدن العتيقة من خلال إصدار قانون 1917م والذي يقضي بالمحافظة على أملاك الشعب من قصور ومتاحف، والقيام بالإجراءات الكفيلة من حيث الترميم وإعادة الهيكلة.
 - * الإنقاص من سمات الحضرية في المدن العتيقة وإخراج المراكز التجارية إلى الضواحي وأدى ذلك إلى خلق مدن تفتقر إلى الحركية التجارية بهدف تقليل الجذب إليها.
 - * توفير التجهيزات ذات الطابع الإستجمامي والثقافي من خلال المساحات والحدائق المجهزة.
 - * سيطرة وسائل النقل الجماعية مما ينقص تبعات الاختناق على الطرق.

5-4- مدن العالم الثالث:

- كانت قبل الحرب العالمية الثانية تحظى بنظرة إزدرائية هامشية، ولكن عقب نهاية الحرب أخذت تظهر الحواضر العظيمة مثل ساوباولو و نيومكسيكو، هاتان الأخيرتان يقطن بهما في نهاية القرن العشرين (20) أكثر من (20) مليون نسمة، ويتميز نمط مدن العالم الثالث بما يلي:
- * النمو الديموغرافي الكبير والهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة بحثا عن فرص العمل المثلى مما نتج عنه معامل تعمير جد مرتفع بحيث أخذ سكان العالم الثالث في التزايد بمعدل متوسط يفوق 04% كل سنة وهذا منذ سنة 1961م، والبلد الأكثر تزايدا هو البرازيل فقد قفز معدل التزايد من 31% سنة 1940م إلى 45% سنة 1968م ثم إلى 68% سنة 1980م ليقارب 80% نهاية القرن الحالي.
 - * هيكلية عمرانية خاصة بسبب عدم وجود الوحدة في التاريخ العمراني والنمط الاقتصادي بين مدن العالم الثالث مما انعكس سلبا على أشكال المنظومة العمرانية فأصبحت جد متباينة، فنتج معظم المدن نحو الضخامة (Mégalo poles)، وقد تكون وحيدة في البلد وتتمحور حولها بقية المدن الأخرى مما يعطي ظاهرة التضخم الأحادي (Monoéphalisme) ويبدو الأمر جليا في كل من داكار بالسنغال والقاهرة بمصر.
 - * تعدد الأزمات العمرانية من خلال المشاكل التقنية الناتجة عن الضعف المادي من جهة وتعدد مراكز القرار من جهة أخرى، وتظهر كذلك المشاكل الاجتماعية الدائمة بسبب عدم مواكبة فرص العمل لتزايد السكان مما يؤدي إلى ارتفاع مستويات البطالة يعقبه انتشار عشوائي للسكان على أطراف المدن.

(5-5- المدن الإسلامية:-

وتعد أصل الحضارة العربية العريقة وطالما شكلت حضارة رائدة استمرت لعدة قرون من الزمن، وكان انبثاق فجرها من الجزيرة العربية لتتوسع شيئاً فشيئاً لتعم كل بقاع العالم حيث استطاعت هذه الحضارة بحق تحقيق الانسجام التام والتأقلم بين الإنسان ومحيط عيشه ضمن حدود الالتزام والتام بالمنهج الديني القويم الذي سطره الشرع تبعاً لما أتت به الرسالة المحمدية. أما المدينة الإسلامية فلقد مرت بعدة حقبات متنوعة ساهم الكثير منها في إثراء العمارة الإسلامية ابتداء من تأسيس الدولة بالمدينة النبوية على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى غاية سقوطها عقب معاهدة لوزان في جويلية سنة 1924م، وسبب الثراء هو الفتوحات الإسلامية التي شهدتها الدولة ابتداء من فتح كل من إمبراطوريتي فارس والروم سنة 651م وهذا بعد فتح كل من سوريا سنة 640م ومصر سنة 645م كما وصلت الفتوحات إلى شمال إفريقيا سنة 698م على يد موسى بن نصير وعقبة بن نافع، ثم الانتقال إلى أوروبا وهذا بعد فتح الأندلس وإسبانيا سنة 712م على يد طارق بن زياد، وامتدت الفتوحات الإسلامية من النواحي الأخرى إلى الصين والهند وأوروبا إلى غاية بواتيه جنوب غرب فرنسا أيام كانت الدولة تحت راية التوحيد يحكمها مركز واحد يتمثل في عاصمة الخلافة، وهكذا ظلت الدولة تنتقل من عهد إلى عهد يمكن تلخيصها:

العهد		المركز		تاريخ التأسيس		تاريخ السقوط	
		هجري	ميلادي	هجري	ميلادي	هجري	ميلادي
الراشدي	المدينة المنورة	11	632	40	661		
الأموي	سوريا	41	661	132	750		
العباسي	العراق	132	750	656	1258		
الأدارسة	المغرب	172	789	314	926		
الطولونيون	مصر وسوريا	254	868	292	905		
الحمداونيون	سوريا	293	905	394	1004		
الفاطميون	مصر	297	909	567	1171		
الإخشيديون	مصر	323	935	358	969		
المزيديون	وسط العراق	350	961	545	1150		
العقيليون	الجزيرة	380	990	489	1096		
المرداسيون	سوريا	414	1032	472	1079		
المرابطون	شمال إفريقيا	448	1056	541	1147		
الموحدون	شمال إفريقيا	524	1130	667	1269		
الأيوبيون	العراق	564	1169	القرن 9هـ	1260		
المرينيون	المغرب	592	1196	956	1549		
الوطاسيون	المغرب	592	1196	956	1549		
الحفصيون	تونس	625	1228	982	1574		
المماليك	مصر	648	1250	922	1517		
العثمانيون	تركيا	680	1281	1342	1924		

الجدول (I-1): مختلف الحقبات الإسلامية التي تعاقبت على حكم الدولة الإسلامية.

المصدر: الباحث (2011).

وأدى هذا الانتشار الإسلامي إلى ترك بصمات رائعة من خلال إنجازه لمجموعة رائعة من العماثر والمدن التي وإن دلت فإنما تدل على سعي المسلمين وراء مستقبل مزهر، فلقد كان المسلمون إبان عمليات الفتح الإسلامي يقومون بتأسيس مدن في كل المناطق التي يتم فتحها، ففي الشرق الأوسط تم تأسيس مجموعة من المدن مثل البصرة سنة 635م والكوفة سنة 638م وهاتان المدينتان أسستا في إطار تعمير العراق في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ثم أسست مدينة الفسطاط سنة 641م من طرف الصحابي عمرو بن العاص في عهد نفس الخليفة حيث تعد هذه المدينة نقطة الانطلاق نحو تعمير مصر وإنشاء مدينة القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ومدينة المعز لدين الله الفاطمي على يد قائد جيوشه جوهر الصقلي، وفي المغرب ولفس الهدف لمراقبة الحدود المفتوحة قام المسلمون بإنشاء عديد المدن على غرار القيروان سنة 670م ثم المانستير ثم سوس ثم المهدية، وهكذا تقدمت العمليات أكثر فأكثر نحو الغرب مع إنشاء بسكرة سنة 680م وفاس سنة 810م ومكناس سنة 940م ثم مراكش سنة 1040م، وعند القرن الحادي عشر (11) الميلادي قامت الفرق الخارجية وهم الإباضيون ومن أجل المحافظة على مميزاتهم الخاصة قاموا بتأسيس مدن الميزاب على تخوم الصحراء.

ومما سبق يمكننا التأكد من أن المدن الأولى في الإسلام ظهرت في وقت مبكر جدا من ظهور الدين الإسلامي الجديد يومئذ، فقد بنى العرب الفاتحون في مدة زمنية قصيرة مدنا كثيرة بالشرق العربي وأخرى بأقصى الغرب والشمال الإفريقي، وتعد عمليات إعادة هيكلة المدينة المنورة من طرف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أول مدينة إسلامية حيث قام عليه الصلاة والسلام بتغيير معالم المدينة القديمة (يثرب) والتي كانت كما قال ياقوت الحموي بأنها حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثير ومياه، ونخيلهم وزرعهم تستقى من الآبار عليها العبيد، قام بتغييرها بما يتماشى مع تعاليم الإسلام وتشريعاته والتي تعتبر تجسيدا للمقومات الروحية للأمة التي كانت طور التكوين.

وجاء عند (خلف الله، ب، 2007) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ببناء المسجد الجامع الذي لازال قائما إلى يومنا هذا بحيث حافظ على التماسك القبلي القائم حينما قام بتقسيم الخطط واختيار موقع المسجد بحيث جعل لكل قبيلة خطة متماسكة تنتهي بواسطة شبكة من الشوارع والطرق إلى المسجد الجامع الذي يعتبر القلب النابض للمدينة ونقطة تلاقي الجميع. واعتبرت هذه النواة نقطة ارتكاز أساسية للتوسع، حيث تنطلق منها تقسيمات الأراضي إلى خطط وأحياء شكلت الوحدة الأساسية في البنية الكلية للمدينة وفق نمط توزيعي قبلي، ومخطط المدينة عموما أسس بطريقة تهدف إلى إظهار التماسك العمراني عن طريق هيكلة الأجزاء العمرانية حول المسجد والمقبرة.



الشكل (2-I): رسم تقريبي لمساكن القبائل بالمدينة المنورة في بداية العهد الإسلامي. المصدر: (خلف الله. ب، 2007).

(5-5-1 - خصائص المدينة الإسلامية:

إن الفتوحات الإسلامية التي مست الإمبراطوريات العظمى آنذاك عادت بفوائد كبرى على الدولة الإسلامية وصلت إلى المجال العمراني والمعماري، فتمازجت الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى مما اكسبها ثراء كبيرا على غرار الحضارة الفارسية والرومانية والإغريقية وغيرها، وعلى الرغم من هذا التمازج إلا أننا نميز خصائص تشمل أغلب المدن الإسلامية لخصها الدكتور خلف الله بوجمعة في النقاط التالية:

(أ)- العضوية:

حيث قال خلف الله >> يمثل الترابط العضوي الذي يعني أن الأجزاء تمثل جهازا واحدا متكامل الوظائف أهم مميزات للمدينة الإسلامية << حيث تقوم الجماعة الإسلامية أساسا على التكامل الوظيفي بين مجموعة من العناصر لتشكل في نهاية المطاف النسق العضوي، وتتمثل هذه العناصر في: المسجد الجامع الذي يعد العنصر المحوري الموحد والمهيكل للأعضاء والمنظم لحركتها، وكذا توجيه الأحياء نحوه لكي يستمد منها مركزيته وقوته بتوفيره للاستمرارية، زيادة على ذلك المسالك والأزقة التي تمثل شرايين رابطة بين الأعضاء عبر حركة تجعل من العناصر متداخلة بشكل كامل ومنسجم.

(ب)- التوزيع الوظيفي والانسجام القياسي:

يقوم توزيع المجالات داخل المدينة الإسلامية على تدرج هرمي من خلال علاقة منسجمة بين الكل والجزء وهذا عن طريق تقسيم المجالات إلى مجايات عمومية تقوم على مستواها التعاملات المضبوطة بتعاليم الإسلام، ومجايات خاصة وهي المنازل حيث تمتاز بتوفير كبير لجانب الحرمة وعدم الاعتداء على الجوار، ومضمون هذا الكلام مستنبط من قول خلف الله >> تتوزع الوظائف الحضرية المختلفة داخل المدينة وفق التوزيع التصميمي في انسجام كامل، فالمسجد المركزي يقوم بالوظيفة الدينية والسياسية والإدارية، والأحياء تقوم بوظيفة الاتصال والتواصل، ويقوم المحيط وهي المدينة - هو المجال الغير مبني - بالوظيفة التجارية عن طريق الأسواق، أما وظيفة العمال فهي أساسا تعتمد على الزراعة المنتشرة في المحيط <<.

(ج)- المركزية:

وهي فكرة سائدة وشاملة في تصميم المدن الإسلامية حيث يلاحظ أنها تعتمد في كل مكونات المدينة، فالمدينة عموما تقوم على المركزية من خلال الساحة الكبرى أو المسجد (الصورة - 2-)، والحي يقوم على المركزية من خلال الرحبة (الصورة - 3-)، والمنزل كذلك يقوم على المركزية من خلال الفناء أو الحوش (الصورة - 4-).



الصورة (2-I): منظر عام لساحة تماشغت
(قصر موغل - بشار-)
المصدر: الباحث 2009.

الصورة (3-I): منظر عام لرحبة القصبة
(قصر موغل - بشار-)
المصدر: الباحث 2009.



الصورة (4-I): منظر عام لساحة الدار البيضاء.
(قصر كرزاز (المرابطين) - أدرار-)
المصدر: الباحث 2009.



>> تعود فكرة المركزية إلى البعد الفكري للمنظومة الإسلامية القائمة على المركز الذي يحتله الدين في الحياة اليومية للمسلمين، وهذا المبدأ هو عنصر بارز في النظام العضوي الكلي للمدينة، ولا تحمل المركزية مفهوما هندسيا فقط لكون المركز المقترح يمكن ألا يتطابق مع المركز الهندسي، وإنما تدل على وجود القلب المحرك للنشاطات الحضارية والمهيكل للنسيج العمراني الكلي للمدينة>>.

(د)- التدرج الهرمي للمجالات:

لقد أثر مبدأ الحرمة التي يدعو إليها الدين الإسلامي على المصممين فدفع بهم إلى اعتماد مخططات عمرانية تقوم على التدرج المجالي ابتداء من المجال العمومي المتمثل في المسجد أو الساحة أو السوق وصولاً إلى المجال الخاص وهي الدار، كما ترسم الجدران الخارجية للمنزل حدود المجال الذي ينبغي مراعاته والذي لا يفتح على الخارج إلا بالمدخل أو فتحات محدودة ومدرسة، وقد قام الدكتور خلف الله بضبط الصفة التدرجية للمجالات كما يلي:

* تدرج تام: شارع - زقاق - درب - دار.

* تدرج نصف تام: شارع - زقاق.

* تدرج بسيط: شارع - دار.

ولتطبيق هذه الخصائص في المدن الإسلامية فإنه يستلزم وجود مجموعة من الشروط قام الدكتور خلف الله بتلخيصها كما يلي:

* أن يسوق إليها الماء العذب للشرب ويسهل تناوله من غير عسف بتوفير مصادر المياه وسهولة توصيلها إلى المدينة عن طريق مد شبكات المياه >> ويرتبط مد القنوات بمستوى وجود الماء ومكان تواجده من المدينة والعوائق الطبيعية والمحدثة التي تفصل مكان الاستخراج عن مكان الاستعمال>>.

* مد شبكات الطرق والسهر على صيانتها واعتماد المعايير الخاصة بالشوارع وجعلها متناسبة ومتلائمة مع حركة المرور ومتماشية مع كثافتها.

* بناء المسجد الجامع وسط المدينة كونه محط اهتمام المسلمين وروح التخطيط لديهم.

* إنشاء السوق وتقدير حجمه تماثيا مع حاجات السكان.

* تقسيم الأحياء بين القبائل فتسكن مجموعة القبائل في حي واحد وهذا من أجل القضاء على التعصب القبلي بشكل تدريجي فتنشأ علاقات اجتماعية بين السكان وتذوب معها تلك النعرات القبلية.

* أن يجعل خواصه محيطين بها من كل الجهات للدفاع عن المدينة من مناطق متقدمة.

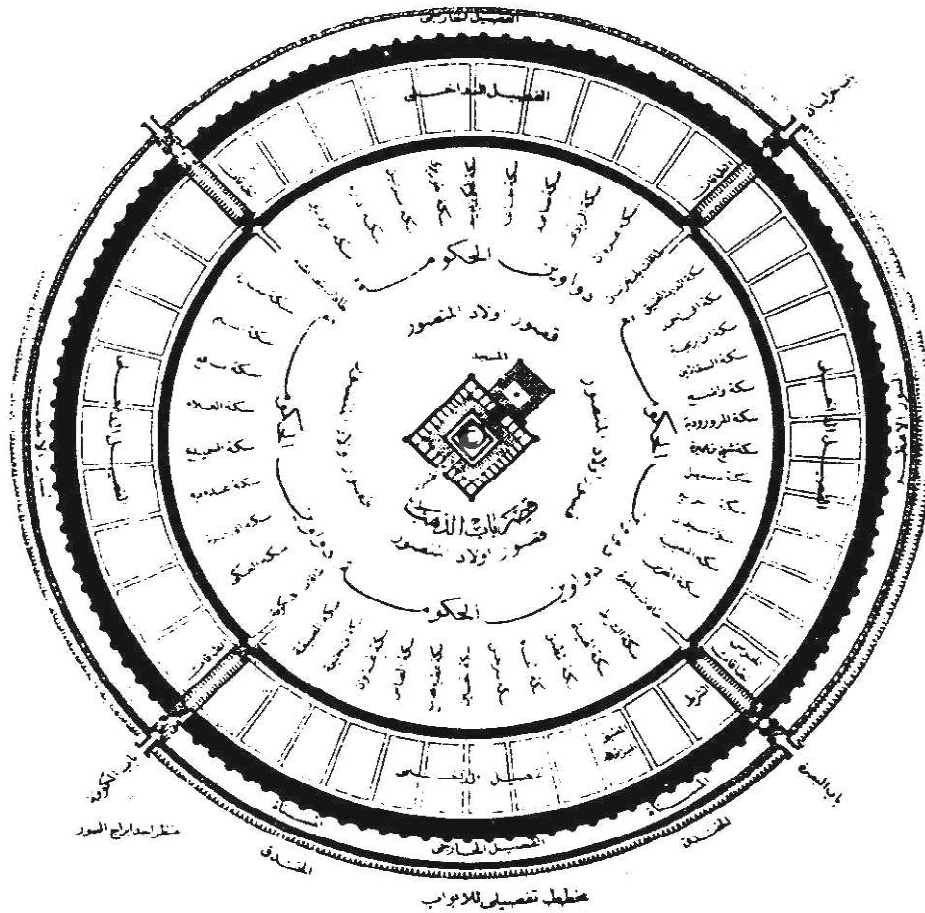
* إحاطة المدينة بسور منيع لتوفير الأمن للحاكم والرعية على حد سواء.

* >> ... أن ينقل إليها من أهل العلم والصناع بقدر حاجة سكانها حتى يكتفوا به ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها، وفي هذا الشرط دلالة واضحة على وجوب تعمير المدينة وضمان اقتصادها المحلي وتثقيف سكانها>>.

إن هذه الشروط السابقة الذكر لها أكبر دليل على أن المدينة الإسلامية كانت تسعى لتوفير أكبر نفع للإنسان ودفع أغلب الأضرار عنه وفق ضوابط وقواعد عامة مستنبطة أساسا من الدين الإسلامي الذي يعد منهج حياة متكامل فضلا على أنه دين الحق.

(5-2 - قواعد تنظيم المدينة الإسلامية:

إن تنظيم المدن هو نتاج فكر إنساني بحث ينبثق أساسا من احتياجات الحياة الإنسانية وارتباطها بالعقيدة الدينية فكل يصمم حسب ما يحتاج وحسب ما تمليه عليه عقيدته الدينية، ولذا فقد كان الإسلام هو المحرك الأساسي لتصميم المدن الإسلامية وسنتطرق إلى أهم الأسس التنظيمية للمدن الإسلامية في الفصل المخصص لدراسة المدينة العتيقة.



الشكل (3-I): مخطط مدينة بغداد - تركز لكل من المسجد و القصر و السوق.
المصدر: (الخليل، س، 1992).

6 - المدينة الصحراوية:

ويقصد بها المدينة الواقعة بالصحراء أي نسبة للحيز الجغرافي الخاص بمنطقة الصحراء، لكن الاختلاف بين العلماء يكمن في تعريف ماهية الصحراء، فيعتبر الكثير من العلماء أن أي منطقة لا يسقط فيها المطر أكثر من 25 سم سنويا هي صحراء، غير أن البعض من فضل الاعتماد على نوع التربة وأصناف النباتات كأساس لتحديد المنطقة وتصنيفها، في حين أن الجمع بين كل هذه العناصر هو الطريق الذي فضلته البقية الباقية من العلماء فيطلقون اسم الصحراء على كل منطقة قليلة النبات بسبب قلة الأمطار وجفاف التربة.

(وسيتم التطرق لتعريف الصحراء بإسهاب في الفصل المخصص بالتعريف بحالة الدراسة).

ويرى (Pliez, O, 2006) تأسس المدن الصحراوية على واقع العديد من التحولات المعقدة والسريعة في ظل الكثير من التحديات المتعلقة بالثروة المائية وتسييرها وشغل المحيط والديناميكيات الاقتصادية والاجتماعية.

أما عند (J. P. Allix, 1999) فإن المدينة بالصحراء عبارة عن مفارقة.

والمفارقة المقصودة هنا هي وجود مدن وتجمعات بشرية تمتاز بالديمومة والاستقرار وسط محيط صحراوي يمتاز بالهشاشة وصعوبة العيش وهذا أمام ندرة العوامل المحفزة على استقرار الإنسان، كل هذا يدفعنا إلى التساؤل عن خصوصيات هذا العمران الصحراوي الذي سمح بإقامة تجمعات سكانية في ظل صعوبة الظروف المميزة. الصورة (I-4).



الصورة (I-5): منظر عام لمدينة بني عباس.

(التوسع الأول- بشار-)

المصدر: الباحث 2009.

7 - العمران الصحراوي:

أولا يجب علينا تحديد وضبط ماهية العمران إذ إن المهندس الإسباني (Ildefonse Cerda) يعد أول من اعتمد هذا المصطلح رسميا من خلال تصوره كعلم خاص بتنظيم المدينة ومرافقها وتحديد احتياجاتها، لكن وبإمعان النظر يتضح أن المصطلح قديم فأصول الكلمة تعود إلى المعنى اللاتيني القديم (urbs) وهي المدينة، ونظرا لتعلق العمران بالمدينة وتعقيداتها ومحتوياتها فقد تنوعت تعاريفه واضطربت، فقد عرفه الدكتور (خلف الله، ب، 2005) على أنه مقارنة استشرافية لواقع المدينة ويحاول فهم طبيعتها المعقدة والتأقلم معها بغية التحكم في صيرورتها عن طريق أدوات وآليات تسمى أدوات التهيئة والتعمير.

كما يرى البعض أن العمران هو تطبيق قواعد القديس أيربان (Saint Urbain).

وهو قواعد المدن والعلم الذي يدرس تقنية بناء وتهيئة التجمعات البشرية والمدن والقرى، وهو أيضا دراسة الطرق التي تسمح بتكييف السكن خاصة مع متطلبات الإنسان، وهو أيضا مجموعة التقنيات الهادفة إلى تطبيق هذه الطرائق.

وقد سرد (Pellettier ;J&Delfante ;CH ;2000) العديد من التعاريف المتعلقة بالعمران منها:

* ما يراه (GB, Forde, 1920) أن العمران هو تصحيح لأخطاء الماضي عن طريق القيام بتهيئة المجال، كما ألقى فورد هذه المسؤولية على عاتق الجميع مستعملين ومتدخلين.

* والعمران حسب رأي (Alfred Aghache, 1920) هو فن يلعب فيه الخيال والتشكيل دورا مهما في تطبيقاته وأوضح كذلك أنه ينبغي على العمراني أن يأخذ في الحسبان كل الآراء حسب الاختصاص كالاقتصادي وعالم الاجتماع ومختص الوقاية، ثم ترجمتها إلى اقتراحات، وهو عبارة عن فلسفة اجتماعية تهدف إلى تحقيق وتوفير أسباب الراحة والرفاهية للسكان.

* أما (F, Chaoy) فيعتبر العمران تلك الممارسات الاجتماعية الخاصة والتي حاولت بعد الثورة الصناعية بناء تنظيم مجالي مبني على أساس علمي ومتكيف مع المجتمع التكنولوجي والاقتصادي الجديد.

أما في ما يتعلق بأدوات التهيئة والتعمير فهي كثيرة ومتنوعة وقد قال (العروق. م. م، 2008)

>> تشكل التهيئة والتعمير أقوى وأكثر الخدمات المحلية التصاقا وتأثيرا في حياة السكان لما لها من مردود فعال في توفير الخدمات والمرافق والمنشآت التي تضمن ترقية إطار المعيشة وتحسين رفاهية البيئة الحضرية <<.

وهذه الأدوات الخاصة بالتهيئة والتعمير تحدد القواعد العامة لتنظيم إنتاج الأراضي القابلة للتعمير وتحويل المبنى في إطار التسيير الاقتصادي للمجال والموازنة بين وظيفة السكن والفلاحة والصناعة والمناظر الطبيعية والتراث الثقافي والتاريخي، ويرى خلف الله أن كلا من التخطيط والتعمير والهندسة المعمارية عناصر متداخلة جدا وهي عناصر محتواة ضمن بعضها البعض فالكبير يحوي الصغير وأكبرها هو التخطيط وهو على ثلاثة مستويات:

(أ)- الرسيمة الوطنية لتهيئة الإقليم (SNAT):

وهو أين يمكن للدولة أن تكشف عن أهدافها الكبرى، وهو عبارة عن نافذة للاختيارات التي ينبغي أن تكون مسجلة في إطار الحداثة، وهو أساسا يقوم على أربعة (04) خطوط عريضة:

(أ)- 1 - استدامة الثروات: وتقوم هي الأخرى على خمسة مبادئ أساسية هي:

- استدامة الثروات المائية.

- ضمان التوزيع اليومي للثروات.

- حماية وتأمين الأنظمة البيئية.

- الوقاية من الأخطار الكبرى.

- الحفاظ وتأمين المعطيات الثقافية المختلفة.

(أ) - 2 - إعادة التوازن للإقليم الوطني: ويقوم هو الآخر على مبادئ أساسية هي:
 - التقليل من الهجرة نحو المدن الكبرى بإقامة أقطاب للاستقطاب البشري.
 - تنمية الجنوب وتأسيس صندوق الجنوب.
 - إعادة موضعة بعض النشاطات.
 - التوازن الجهوي.

(أ) - 3 - الوصول إلى جاذبية وتنافسية الأقاليم.

(أ) - 4 - تحقيق المساواة الاجتماعية والتوازن بين الأقاليم.

(ب) - الرسيمة الجهوية لتهيئة الإقليم (SRAT).

(ج) - مخطط تهيئة الولاية (PAW).

(د) - المخطط العمراني التوجيهي (PUD):

وهو أول أداة عمرانية في الجزائر بعد الاستقلال، وهو مخطط استشرافي يبين كيفيات استعمال المجال في مدة زمنية محددة ويهدف إلى:
 * التسيير العقلاني للمجال الحضري ضمن ما يسمى بالمحيط الحضري والذي يتم استنفاده في مدة (20) سنة.

* التجاوب مع حاجيات السكان من حيث السكن والمرافق العامة، ويحتوي على وثائق كتابية وأخرى بيانية بحيث تكون الوثائق الكتابية مقسمة إلى أربعة (04) مراحل:

- مرحلة المعاينة.

- مرحلة التحليل.

- مرحلة الاقتراح.

- مرحلة التقنين (مخطط شغل الأراضي).

ويعتبر المخطط العمراني التوجيهي أحد قرارات قانون نزع الملكية من أجل المنفعة العامة سنة 1975م بحيث أصبحت البلديات مجبرة على إعداد مخطط عمراني توجيهي، وقانون نزع الملكية من أجل المنفعة العامة جاء كدعم لقانون الاحتياطات العقارية البلدية سنة 1974م والمعروف بقانون (74/26) والذي بعد الشعور بضرورة التدخل للتحكم في نمو المدن لأنها بدأت تأخذ شكلا فوضويا.

ونظرا للنقائص الكبيرة التي عانى منها هذا المخطط فقد توجهت الجزائر إلى قانون جديد بسبب صدور قانون جديد عقب دستور فبراير 1989م، ففي قانون 1989/02/24م تغير الدستور وأصبحت الملكية حقا دستوريا ومنه ألغي قانون نزع الملكية وجاء قانون جديد للتهيئة العمومية وهو قانون (90/30) وهو قانون محدد للتهيئة والتعمير بحيث أصبح لزاما على كل البلديات إعداد مخطط التهيئة والتعمير (PDAU).

هـ) - المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU) :

هو مخطط عمراني يهدف إلى رسم صورة استشرافية لبلدية معينة أو مجموعة بلديات ومدته النظرية (30) سنة أما عمليا فهي (20) سنة، >> وهو أداة للتخطيط والتسيير الحضري يحدد التوجهات الأساسية للتهيئة العمرانية للبلدية أو البلديات المعنية أخذا بالاعتبار تصاميم التهيئة العمرانية ومخططات التنمية ويضبط الصيغ المرجعية لمخطط شغل الأراضي <<. (المادة -16- من القانون 90/29 المؤرخ في 1990/12/01م والمتعلق بالتهيئة والتعمير) وهو عبارة عن نقل حرفي لما وقع في الرسيمة التوجيهية للتهيئة والتعمير الفرنسية المعروفة اختصارا بـ (SDAU) الناتجة عن قانون التوجيه المعماري والعمراني سنة 1967م الذي يهدف إلى توسيع المدينة وفق مخططات (SDAU).

و) - مخطط شغل الأراضي (POS) :

ويغطي جزء من تراب بلدية >> ويحدد بالتفصيل في إطار توجهات المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير حقوق استخدام الأرض والبناء <<. (المادة -16- من القانون 90/29 المؤرخ في 1990/12/01م والمتعلق بالتهيئة والتعمير).

ي) - رسيمة التناسق الإقليمي (SCOT) :

وهو وثيقة ما بين البلديات تسمح بتهيئة المجال بطريقة متناسقة، وهدفها الأساسي هو إعطاء السياسات العمرانية للبلدية نظرة موحدة وأن توافق عليها، وهذه الأداة تفرض نفسها كوثيقة محلية لل عمران وتتمثل مهمتها في تعويض مكان الرسيمات التوجيهية لأنها تحتوي على معلومات أكبر وأسهل للتسيير ومدتها (10) سنوات ويعتبرها الكثيرون أداة للتشكيل العمراني وليس مجرد أداة قانونية.

م) - المخطط المحلي للتعمير (PLU) :

ويأتي بعد مخطط شغل الأراضي وتعطى فيه الأولوية لل عمران وليس للجانب القانوني، فللمصمم الحق في إبداء رأيه ولو بمخالفة بعض القوانين التي تتعارض مع التعمير.

ن) - مخطط التهيئة والتنمية المستدامة (PADD) :

وهو وثيقة عمرانية تهدف إلى تحقيق الأهداف السياسية العمرانية في العمران والسكن والتنمية الاقتصادية والترقية وتنقل الأفراد والسلع وتوقف السيارات وتنظيم حركة المرور، وهو يدمج بين مخططين بلديين هما: (PCD) ومخطط التهيئة العمرانية (PAU). وينقسم العمران من حيث الأدوار التي يقوم بها والوظائف التي يؤديها نحو المدينة إلى قسمين أساسيين :

*** العمران الوقائي:**

هو الذي يستبق المشاكل ويحضر لها الحلول المستقبلية، فهو يقوم على الاستشراف كالعالم الذي يقوم على التنبؤ بما سيكون عليه المجال في آفاق محددة وفق معايير إحصائية مضبوطة، فهو قائم أساسا على التوقع وهناك من يدرجه ضمن العمران الاستشرافي (L'urbanisme prospectif).

*** العمران العلاجي:**

وهو عمران يتدخل على وضعيات قائمة ويقوم بتحليل الوضعية ومن ثم الاستنتاج والتدخل وله أدوات.

وقد لعب العمران دورا هاما وأساسيا في تشييد المدن والمنشآت عبر التاريخ، فقد اعتمدت الحضارات السالفة على العمران في تنظيم مدنهم على غرار الحضارة الفرعونية والبابلية اللتان اعتمدتا في تنظيم مدنهما التوافق مع التمايز الاجتماعي من خلال تدرج وفصل المجال المدني وفق الطبقة السائدة، أما عن الرومانيين واليونانيين فقد أبدعوا في التنظيمات العمرانية على واقع انعكاس النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية على الحياة اليومية وما ينجر عنها من مساعي لإيجاد الحلول في ما يخص التوسعات المستقبلية.

أما بالنسبة للعمران ضمن القرون الوسطى فامتاز بتلاحم الكتل المعمارية جراء التكتل المجدد والغالب على أفراد المجتمع يومئذ، أما عن عصر النهضة الأوربية فقد اتجه نحو إتباع الفكر والمدرسة الكلاسيكية اليونانية والتي تستند معالمها على إظهار الهيبة والضخامة من خلال تخطيط ميادين رسمية على محاور ضخمة للحركة تقام بها الحفلات والمهرجانات الرسمية، وأما عن القرن الثامن عشر (18)م فقد تميز بظهور تحولات كبيرة مست المدن على كل المستويات من خلال تداعيات الثورة الصناعية ومساهماتها في تطوير المواصلات والتزايد الهائل للسكان وتركز أغلبهم في المدن مما نتج عنه مشكلات عمرانية جد معقدة تطلبت نظريات عمرانية بغية التخفيف من هاته المشاكل فنتجت العديد من التيارات والمدارس المختلفة أهمها التيار التقدمي والتيار الثقافي.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين (20) شهدت أوروبا عمليات إعادة إعمار جراء الحرب العالمية الثانية وما خلفته من دمار شامل وكان المطلوب هو سرعة الإنجاز وبأكبر عدد ممكن، فظهرت المكننة وهي إدخال عنصر الآلة فنتج عن كل هذا القطيعة بين المدينة العتيقة والأخرى الحديثة أدى هذا إلى بروز عدة مدارس تدعوا إلى ضرورة دمج النسقين القديم والحديث ولعل أبرزها هي:

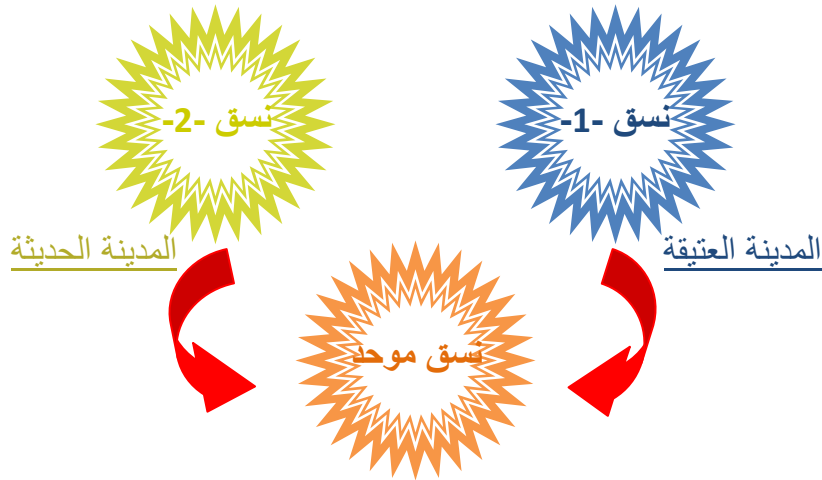
*** مدرسة الاسترجاع (Recupero):**

وهي مدرسة إيطالية دعت إلى ضرورة الدمج بين المدينتين القديمة والحديثة والمطالبة بعدم إهمال دراسة المدينة العتيقة، وظهرت هذه المدرسة في سنوات السبعينيات.

*** مدرسة بولونيا:**

وهي مدرسة إيطالية أيضا ويعد (Aldo Rossi) و (Muratori) من أهم منظريها، وقد ذاع

صيتها حتى أصبحت مبادئها مدمجة إجباريا في المسار الدراسي للهندسة المعمارية حتى تفهم وأصبحت مدينة بولونيا مقصدا للطلبة لاقتباس المبادئ منها.



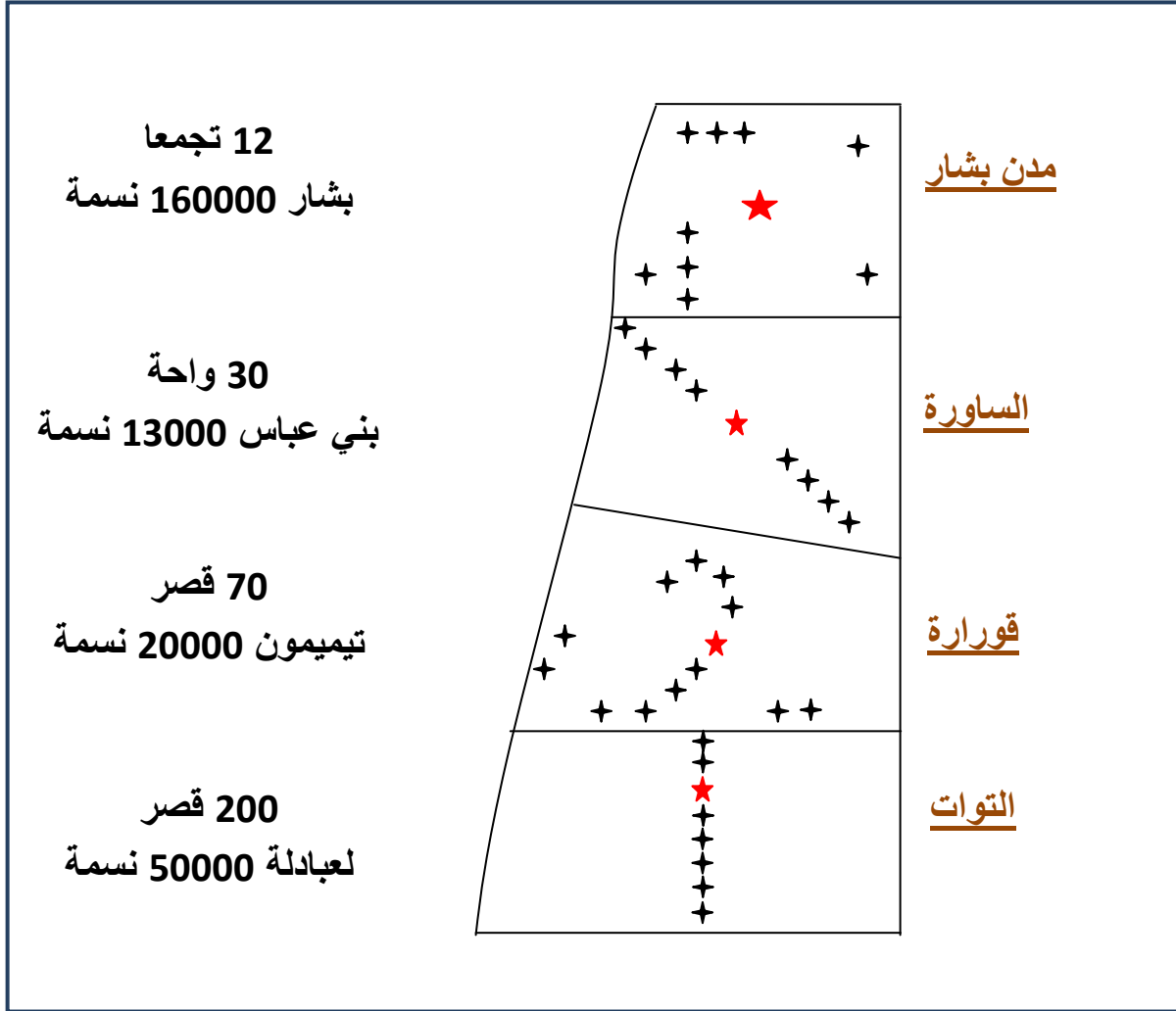
الشكل (4-I): مخطط عام يظهر أهم مبادئ مدرسة بولونيا - إيطاليا -
المصدر: الباحث 2011.

ومن كل ما سبق يتضح لنا جليا أن العمران هو علم يهدف إلى حل المشاكل التي تتخبط فيها المدينة مع التخمين لمستقبل مزهر في ظل التغييرات السائدة بالمدينة.

لقد تميز العمران في المناطق الصحراوية بالوتيرة الجد متسارعة أرجع الكثير من الباحثين على غرار (Bisson V, Bisson J, 2002) أسبابه إلى اقترانه بالاكتشافات المتعلقة بالموارد المعدنية والغازية (النفط، الغاز، الحديد، الفوسفات، ...) تطلبت خصوصية في البنية التحتية لتلك المناطق مما جعل منها قطبا لجلب السكان والاستقرار بها وممارسة مختلف الأنشطة الاقتصادية، وأما عن (Cote, M, 2005) فقد تخصص في الدراسة لإقليم الصحراء المنخفضة بالجنوب الشرقي الجزائري وقال إنه يوجد ما يسمى بميكرو عمرنة (Micro-urbanisation) وهو التعمير المتسارع بالمنطقة وأن حقيقته تعود إلى ما قبل هذه الآونة لكن بحددة ووتيرة أقل مما هو عليه اليوم، نفس الأمر أكده (Ferhi, A, 2005) في دراسته للتجمعات البشرية بمنطقة الصحراء المنخفضة مع تأكيده على وجود أقطاب ثلاثة (03) ميتروبولية تمتاز بالنمو الكبير والمتسارع مقارنة بما يحيط بها من تجمعات سكانية صغيرة فنتج ما يسمى بظاهرة كبر الرأس أو ما يعرف بـ (Macrocéphalie) لهاته الأقطاب الثلاثة وهي بسكرة عاصمة الزيبان، والوادي عاصمة وادي سوف، وتقرت عاصمة وادي ريغ حيث تعدى القاطنون بها 100,000 نسمة.

ونفس هذه الظاهرة سجلت أيضا في منطقة الصحراء الغربية بالجزائر وبالضبط في مدينة بشار حيث سجل تجمع وتركز للتجمعات الحضرية حول المركز بشكل كبير مقارنة بالتجمعات الأخرى، في حين لم تسجل ظاهرة (Macrocéphalie) في باقي أقاليم المنطقة (الساورة، التوات، القورارة) حيث لوحظ وجود نوع من التجانس بين التجمعات السكانية. (الشكل -05-).

أما الدكتور (علقمة، ج، 2005) فقد نحى منحى آخر من خلال تكلمه وتطرقه إلى خصوصية العمران بنفس المنطقة وأشار إلى قوة العمران في التجمعات التي فاق تعداد السكان بها 100,000 نسمة ولاح بالضوء إلى عظم المشاكل الناجمة عن هذا العمران من خلال تسيير الموارد المائية والمحافظة على المحيط عموماً.



الشكل (I-5): التنظيم الإقليمي للصحراء الغربية الجزائرية.

(ملخص الجولة العلمية - 2009 -).

المصدر: (COTE, Marc, 2009).

8- خصائص المدن الصحراوية:

بعد تطرقنا إلى العمران الصحراوي كان لزاما علينا التكلم عن خصائص ومكونات المدن الصحراوية ومسار نموها وتطورها عبر الزمن:

8-1- الواحة:

وتكون قريبة من مصادر المياه سواء أكانت جوفية قريبة من السطح أو على ضفاف وحواف الأودية والأنهار العابرة للصحراء، وتكون غالبا مكسوة بغطاء نباتي. (الصورة - 06 -).
وأما (R-Capot-Rey, 1953) فيرجع أصل كلمة واحة إلى اللغة المصرية القديمة.
وأما (Bernard, A, 1939) فقال أنها قبطية الأصل وهي ألواح وتعني مكان الإقامة.
هذا لغويا، أما اصطلاحا فقال (Lévy, J & Lussault, M, 2003) " أنها مكان مسكون ومعزول في محيط قاحل وعدائي متعلق بإمكانية استغلال مصادر الماء من أجل ممارسة الزراعة المسقية."، وأما (Retaille, D, 1989) فقال إن الواحة هي مكان للاستقرار وتضم قصرا ومدينة ومحيطا غذائيا ويقصد بها غابة النخيل.



الصورة (6-I): منظر عام لواحة (قصر تاغيت- بشار-)

المصدر: الباحث 2009.

8-2- القصر والمدينة:

إن استعمال كلمة القصر في الصحراء لا يعني ذلك المكان الذي يسكنه الملوك والولاة وإنما هو المدينة القديمة أو التجمع السكاني في المدن القديمة (الصورة -07-)، وغالبا ما تؤسس هذه بسبب وجود مصادر المياه (منابع مياه، أودية، ...) إضافة إلى العوامل الأمنية التي تتحكم في طريقة بناء القصر.

وقد تنوعت التعاريف التي تدور حول القصور فعرّفها (عبد الجواد. ت، 1970) أنها >> عبارة عن مجموعة من المباني الإدارية والسكنية المحصنة لتفادي هجوم الأعداء، وتكون محصنة بأسوار وأبواب وأبراج مراقبة.<< (الصورتان -08-09-)



الصورة (7-I): منظر داخلي عام لقلعة حلب - سوريا -
المصدر: الباحث 2009.



الصورة (8-I): منظر عام للمدخل الرئيسي
والسور والخندق بقلعة حلب - سوريا -
المصدر: الباحث 2009.

الصورة (9-I): منظر عام لقلعة الإسكندرية
- مصر -
المصدر: الباحث 2009.



واعتبر (MAZOUZ, S, 2005) القصر دالا على المفهوم الحقيقي والصريح للفظ وهو القصر أي (Palais) وهي مجموعة من الحصون ممتدة من جنوب المغرب الأقصى إلى الجنوب التونسي وهي عبارة عن تجمعات صحراوية تم تشييدها قديما ويكون بها الطابع الريفي، وأما عن تموضعها فبسبب الجانب الدفاعي وحفاظا على مصادر المياه والتربة الخصبة نجد هذه القصور متموضعة على أرضية صخرية مرتفعة (الصورة -10-)، وهي كما يلاحظ نظرة ذكية وتصرف حكيم من أجل المحافظة على مصادر الزراعة وللأسف نجدها مهملة بشكل كبير في أيامنا هذه فأغلب التوسعات لا تراعي أبدا هذا الجانب المهم.



الصورة (10-I): منظر عام لقصر غرداية بالصحراء الجزائرية.

المصدر: (Jeandroz. P & Chateher. P, 2004)

أما (Dorier, Apprill, 2001) فيعتبر أن المدينة الإسلامية الكلاسيكية هي الأساس في تعريف المدينة وقال أنها تكون محاطة بجدار وهذا للحماية من الاعتداءات الخارجية ومهياة بمبان دينية وتمتاز بهيكله متراسة مع طرق ضيقة ويكثر بها التعرج والالتواءات وتكون مقسمة إلى مناطق سكنية وأسواق.

وقد تعرض (Chaline; C; 1996) إلى خصائص المدن العربية الإسلامية ولخصها كما يلي:

- تركيز جغرافي لنشاطات التداول والإنتاج في منطقة الأسواق.
- استمرارية الكثافة في النسيج المبني.
- ديمومة الملامح الخارجية للإسلام مجسدة بأماكن العبادة والتعليم.
- البراعة في الاستجابة المعمارية والعمرانية للتقليل من شدة الحرارة الصيفية من خلال ضيق الشوارع، ووفرة المجالات المفتوحة الداخلية، السطح المستعمل كملحق.

9- خصائص النسيج العمراني:

إن الحضرية تمثل تغييرا في النمط الكلي للحياة الاجتماعية، فقد تكون في ذاتها نتاجا لتطورات مجتمعاتية غير أنها كانت رغم عمرها القصير نسبيا ذات تأثير فعال في كل مظاهر الوجود الإنساني، ولا تزال عملية التحضر واقعة ومستمرة ومازال الكثير من نتائجها ومشكلاتها يمثل واقعا تعيشه أجزاء عديدة من العالم اليوم، كما أن اتجاهاتها المستقبلية لا تزال أمورا يصعب التكهن بها.

فبالملاحظة المتفحصة للتجمعات الحضرية نجد أن عناصرها تمر بمراحل مختلفة طيلة فترات حياتها، فالتجمعات الحضرية متغيرة إما شكليا أو وظيفيا، وهذا التغيير إنما هو تبع لمتغيرات أخرى مختلفة، وقد أدى هذا التغيير على مستوى الحيز الفيزيائي للأنسجة العمرانية إلى إحداث فجوة كبيرة بين العمارة القديمة والحديثة ونشوء أنسجة عمرانية غير متجانسة وغير متوافقة، وقد أكد الدكتور (علقمة، ج، 2005) على ذلك بقوله >> إن واقع التجمعات بالصحراء ونشوء هذه التطورات العمرانية وذلك بتوضع لأنسجة عمرانية غير متجانسة ومن دون أي توافق لم تستطع أن تعطي صورة لمدينة متوازنة مع بيئتها، وكذلك أدى هذا التوقع إلى ظهور أنماط جديدة من العمارة غير متوافقة مع المعطيات المناخية والبيئية وحتى التطور على حساب عمارة طالما شكلت الصورة الحقيقية والمرتزة لعمارة محلية وأفقدتها عناصرها ومدلولاتها وأصبحنا نرى من يوم لأخر ظهور عمارة رديئة منقولة من دون مهارة ولا إتقان لما ينتج بمدن الشمال والتي تشكل عنصرا دخيلا على بيئة الأحياء العتيقة والواحات التي أصبحت تعرف الموت والانقراض البطيء.<<

وسنحاول التطرق إلى مختلف أنماط التغييرات التي تطرأ على مستوى الأنسجة العمرانية.

9-1- مفهوم النسيج العمراني:

يرى كل من (Marlin, P & Choay, F, 2000) أن النسيج العمراني يشبه الخلايا المبنية والفراغات العمرانية بتشابك خيوط النسيج، فهو يعتبر مجموعة من عناصر الإطار العمراني الذي يكون الكل المتجانس، وقال إن النسيج العمراني هو التغيير الفيزيائي للشكل العمراني ويتكون من مجموعة من العناصر الفيزيائية (الموقع، الشبكاتية، التحصينات، النسبة بين ما هو مبني وغير مبني، البعد، الشكل والطرز) وتضاف إليهما العلاقات التي تربط بين كل هذه العناصر، وخلص الباحثان إلى " أن النسيج العمراني هو جزء ومظهر لجزء من المدينة، حيث إنه إن كان متجانسا فإننا نميز عدم وجود الاختلاف بين العناصر المذكورة سالفًا." أما الباحثان (Duplay, M & Duplay, C, 1982) فقد قدما ثلاث صيغ للنسيج العمراني:

- * معماريا: أين يعتبر النسيج العمراني للمدينة كشيء مركب.
- * عمرانيا: أين تعتبر المدينة ككل كأرضية مقسمة وظيفيا لتصل بنا إلى النماذج.
- * معماريا وعمرانيا معا: أين تعتبر المدينة كنسق، وهي الطريقة المثلى لدراسة الأنسجة العمرانية الموجودة ضمن تعقيداتها وتراكيبها دون تجاهل لأي عنصر.

كما استنتج (Panerai, Ph, 1987) أن كلمة النسيج وبالنظر إلى معناها ومدلولها يمكن

إرجاعها إلى مفهومين أساسيين:

أولهما: النسيج المحاك وما يضمنه من أفكار للاستقامة والتنظيم والترص وهو موافق للكلمتين (شبكة ونسيج).

ثانيهما: النسيج البيولوجي وما يحويه من أفكار من جهة إمكانية التطور والتأقلم مع الشروط المستجدة وكذا الأمراض التي يمكن أن تصيب النسيج فتحول دون تطوره ونمائه.

وأما من جهة التركيب والبناء فيرى الباحث نفسه أن النسيج العمراني مركب من ثلاث (03) مجموعات كبرى هي:

* مجموعة المجالات الحرة:

وهي الشوارع والساحات والطرق الضيقة والطرق المحدودة والنهج والطرق الواسعة والمنظمة على أساس شبكي متواصل ومتعرج.

* مجموعة التخصيصات:

والتي تعبر عن التجزئة العقارية في حالة قبلية أو نتاج تقسيم إداري (Lotissement).

* مجموعة المباني:

المباني العشوائية، المباني المخططة، المتاجر، المباني الخاصة مثل المعالم والمرافق.

وذهب (Gauthiez, B, 2003) إلى أن النسيج العمراني هو نتاج تهيئة المجال وكذا العلاقات في

ما بين عناصره: كالتوضع ونمطية المباني والتخصيصات والطرق وشكل المجالات الحرة والارتباط بعوائق الموقع.

9-2- تطور الأنسجة العمرانية:

أكد (Peneau, J-P, 1987) أن النسيج العمراني يعتبر كالكائن الحي يضم هيكله متغيرة وقابلة

للتطور، غير أن تطور النسيج العمراني يمكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة من حيث التجانس

والتواصل، فتطور الأنسجة العمرانية يمكن أن يكون متصلاً ومتلاحماً ومترابطاً ارتباطاً مباشراً

بالمركز القديم للمدينة فيكون لدينا نوع من التكتف للنواة القديمة الأصلية وما يليها من توسعات

عمرانية مستحدثة (الشكل -06-)، وقد عرف (خويش. م. خ، 2003) النواة القديمة على أنها

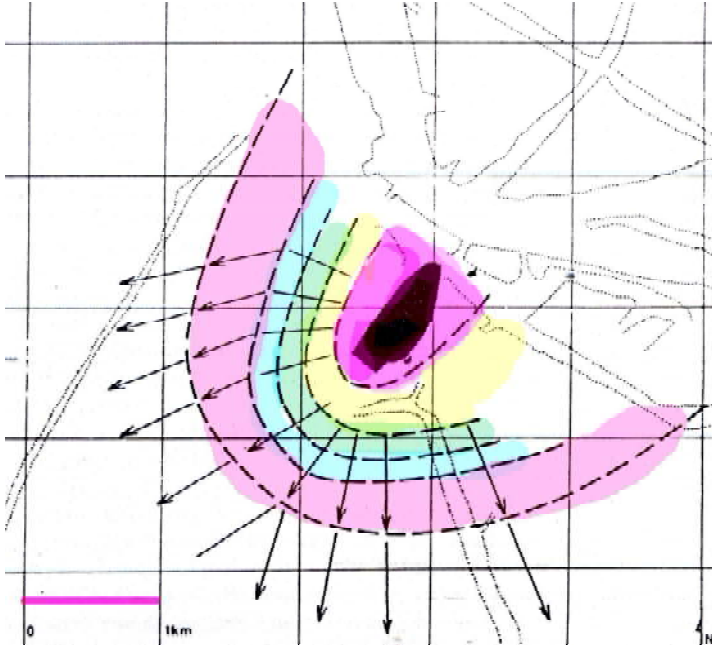
>> مجموعة من الأبنية وساحات الفضاء تشمل المواقع الأثرية التي تشكل مستوطنا بشريا في

بيئة حضرية أو ريفية، ويعترف بقيمتها من الناحية الأثرية أو المعمارية أو التاريخية أو الجمالية

أو الاجتماعية أو الثقافية <<.

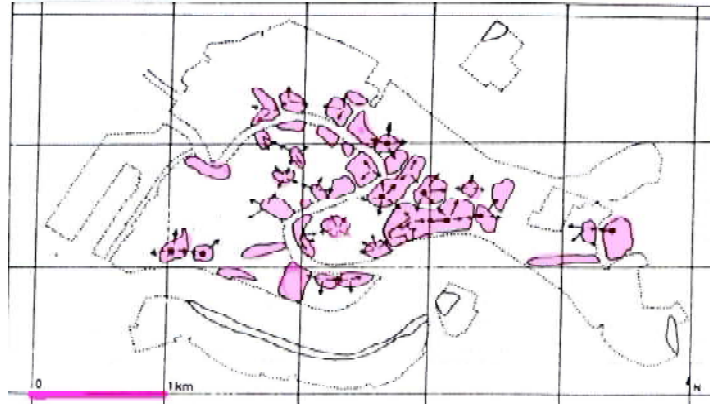
كما يمكن للنسيج العمراني أن يتطور بشكل منقطع عن النواة الأولى حيث نلاحظ وجود فراغات

مفتوحة في شغل الإقليم بين النواة القديمة والتوسعات الجديدة (الشكل -07-).



الشكل (6-I): التطور المتواصل للنسيج العمراني لمدينة أمستردام (تطور إشعاعي).
المصدر: مدوكي. م، 2010.

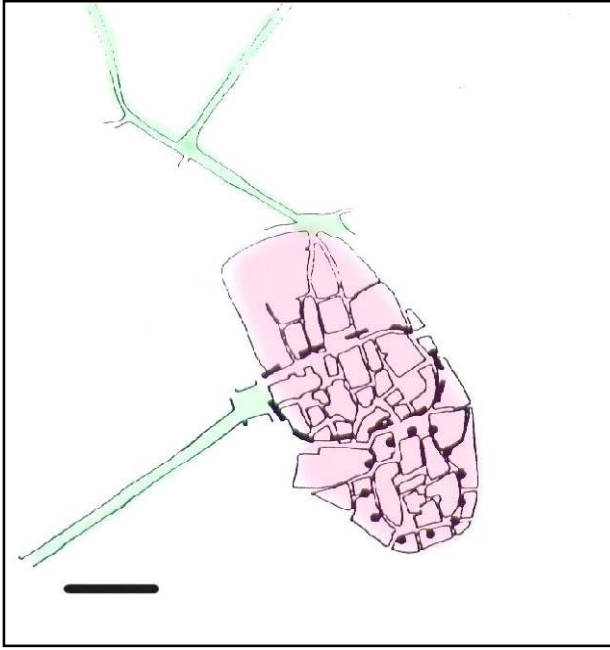
الشكل (7-I): التطور المنقطع للنسيج العمراني لمدينة البندقية.
المصدر: مدوكي. م، 2010.



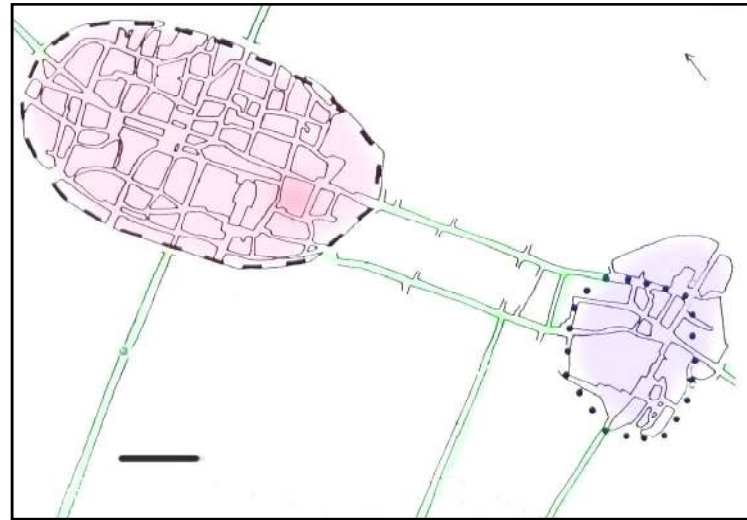
وإذا ما دققنا النظر في عبارة تطور الأنسجة العمرانية فإنه يتضح لنا وجود مركز أولي يأخذ في التطور وفق منحى معين تتحكم فيه عوامل، وهذا المركز الأولي والمنحى أطلق عليهما الباحث (Philippe Panerai) اسم عناصر التنظيم ويمكن ذكرهما بالتفصيل كما يلي:

(9-2-1 - قطب التطور:

وهو النواة الأساسية والنقطة المرجعية التي تبدأ منها عمليات النمو والانتشار والتوسع للأنسجة العمرانية وفق عدة خطوط تطويرية وهذا بوجود قطب أحادي للتطور وهي الحالة العادية والأكثر شيوعا كما في الشكل (08)، وقد يكون هذا التوسع والانتشار بوجود قطبين أو أكثر وهي الحالة المعقدة المعروفة باسم (Bipolaire) أي ثنائي القطب كما في الشكل (09).



الشكل (8-I): انطلاق تطور المدينة من قطب أحادي، مدينة Rodez بفرنسا.
المصدر: مدوكي. م، 2010.



الشكل (9-I): انطلاق تطور المدينة من قطبين - مدينة Reims بفرنسا
المصدر: مدوكي. م، 2010.

(9-2-2 - خط التطور:

وهو المنحى الذي تأخذه التجمعات الحضرية والأنسجة العمرانية في مراحل نموها وتطورها وهي مختلفة ومتنوعة فيمكن تمييزها وفقا لاتجاه تطور التجمعات السكانية على طول الطرق وكذا خطوط الأنهار والأودية والسكك الحديدية، ويمكن أن تكون خطوط تطويرية ذات صيغة طبيعية وتكون موجودة قبل التعمير، وقال (Panerai, Ph & Panerai, Al, 2002) أن وظيفة خطوط التطور لا تنحصر في صيغة الطرق المميزة بتراسف المباني على جانبيها، لكن تتعدى إلى الربط بين الأقطاب وضبط التطورات الثانوية والتكتفات العمرانية وهيكله المجال العمراني.

(9)-3- العوامل المتحكمة في تطور الأنسجة العمرانية:

إن تطور الأنسجة العمرانية لا يتم اعتباطا ولا يأتي صدفة، وإنما هو نتيجة دراسة خاضعة لعدة عوامل تتحكم بشكل كبير ومهيمن على شكل التطور لهذا النسيج العمراني، وأكبر هذه العوامل وأهمها عاملان أساسيان هما:

(9)-3-1 - العوامل الطبيعية:

فهي تلعب دورا أساسيا في التأثير على مخطط الأنسجة العمرانية حيث نجدها تتحكم في شكل تطور الأنسجة العمرانية وتلعب دور الموجه لها، وعلى سبيل المثال لا الحصر المدن الكائنة أسفل وبمحاذاة الوديان والأنهار نجدها تنمو وتتطور على ضفافه وحوافه على غرار مدن Tulle بفرنسا و Liège بلجيكا.



الصورة (I-12): منظر عام لمدينة (Liège)

- بلجيكا-

المصدر: موسوعة ويكيبيديا

2011/04/26

الصورة (I-11): منظر عام لمدينة (Liège)

- بلجيكا-

المصدر: موسوعة ويكيبيديا

2011/04/26



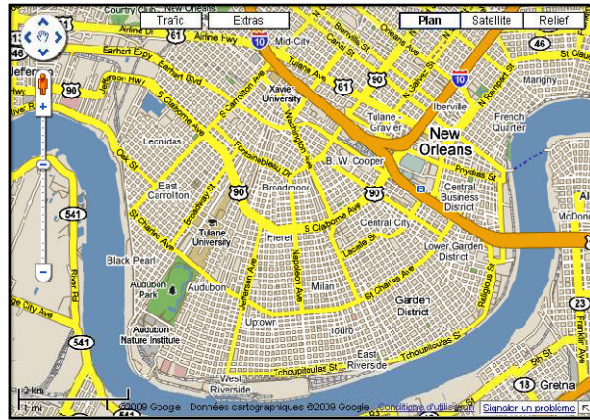
الصورة (I-13): منظر عام لمدينة (Tulle)

- فرنسا-

المصدر: موسوعة

ويكيبيديا 2011/04/26.

كما تتحكم منحنيات التسوية في مسارات الشوارع فنجدها تساهم وبشكل واضح في التأثير على شكل الأنسجة العمرانية وهذا بإكسابها الطابع المركزي. (الشكل -10-).



الشكل (10-I): المخطط المركزي لمدينة New Orléans بالولايات المتحدة.
المصدر: مدوكي، م، 2010.

أما المناخ فإن اكبر تأثير يمثله يكمن في تأثيره على توجيه الشوارع وهذا اتقاء الرياح الضارة والسايدة ونجد هذا عند السومريين والإغريق.

(9-3-2) المخططات المروضة من قبل الإنسان:

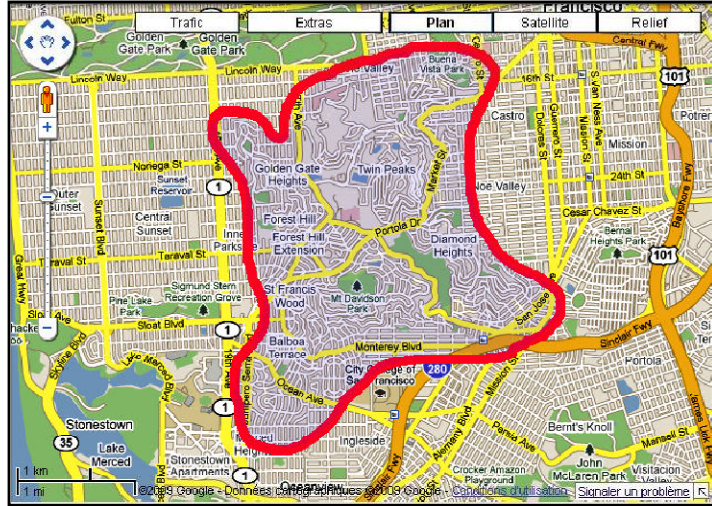
أين يكون تخطيط المدن وتوسعها ونموها خاضعا لقرارات مفروضة من قبل الإنسان وفقا لقرارات إدارية تستند على أسس وقوانين قابلة للتنفيذ، وكمثال على ذلك أشغال هوصمان وتدخلاته على العاصمة باريس (الشكل -11-)، وقد تكون هذه المخططات لا تولي أي اهتمام للمعطيات الموجودة من قبل في الموقع كما هو الحال في مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة حيث أن مخططها الشطرنجي يمر عبر نتوءات جبلية أوجدت شوارع ذات انحدار شديد.



المفاتيح:

- الجزيرات المستحدثة
- الطرق المستحدثة
- الطرق المستحدثة

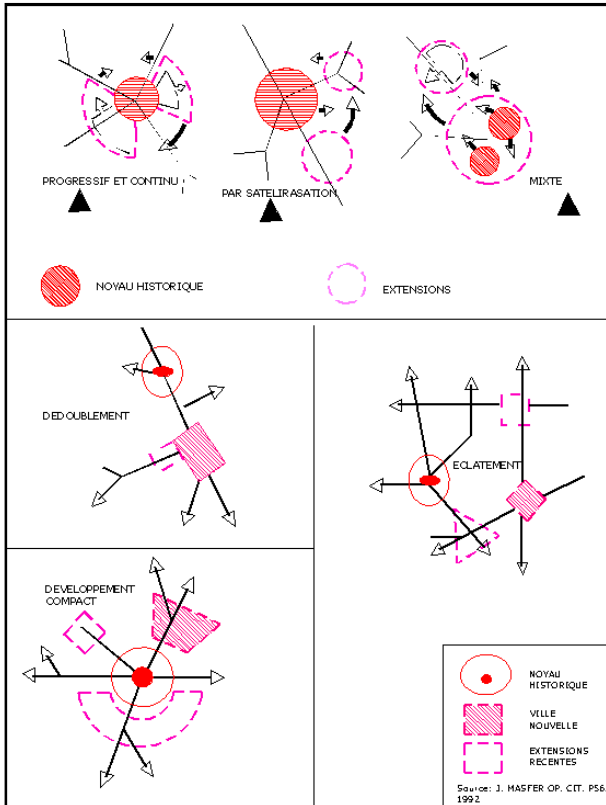
الشكل (11-I): الرسومات التي عدل بها هوصمان النسيج العمراني الباريسي
المصدر: (مدوكي، م، 2010).



الشكل (I-12): الاختلاف بين شكل مخطط المدينة (الشطرنجي) وطبيعة الأرضية.
مدينة سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة -
المصدر: (مدوكي، م، 2010).

(9) -4 أشكال تطور الأنسجة العمرانية:

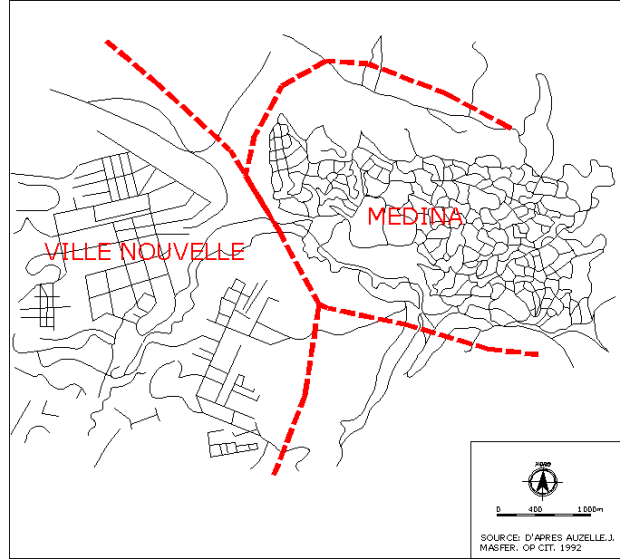
لقد أخذت العمارة الإسلامية منحى جديدا ومفاجئا نحو تتبع حركة معمارية و عمرانية جديدة غربية وغربية عن هذه المجتمعات شكلت انقلابا وتحولا وسط هذه التجمعات العمرانية التي لها تاريخ بعيد وممتد عبر تعاقب السلطات والحضارات لعدة قرون من الزمن.
إن الأنسجة العمرانية اليوم تشهد مواجهة بين عالمين أحدهما متحضر ومتمدن يضغط وبقوة على عالم قديم ويحاول كبت وظائفه الحيوية ومقوماته الاجتماعية وإرثه الثقافي والحضاري، فأصبحت المدينة اليوم عبارة عن فسيفساء اجتماعية ومجالية دون تجانس لأن مجالها الحضري يمتاز بالتمزق.



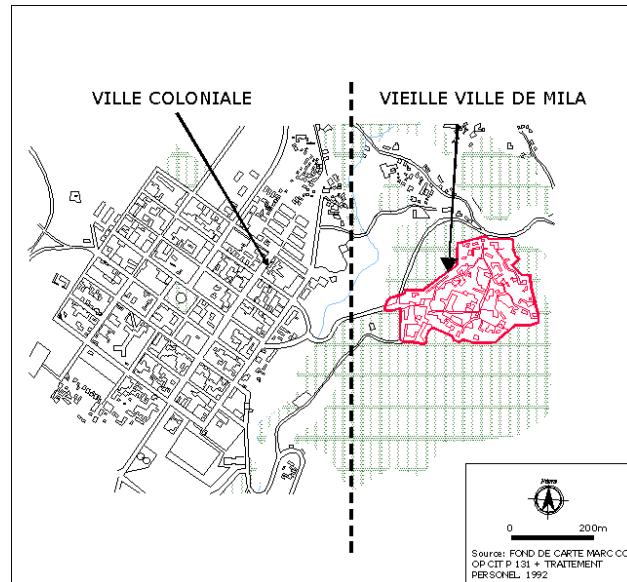
الشكل (I-13): أشكال تطور المدن
استنادا إلى أنويتها القديمة.
المصدر: (Kadri, S, 2006).

(9-4-1 - التطور بتضاعف الأنسجة العمرانية:

ويكون بخلق نسيج عمراني جديد ومعزول عن النواة الأصلية التي لم تعد قابلة للتوسع مع الزيادة الدائمة والمستمرة للكثافة السكانية، وهنا في هذه الحالة يكون التوسع حتما لا مفر منه أي يكون إلزاميا، كما يمكن أن يكون عن قصد ونذكر كمثال على ذلك مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة ميلة بالجزائر ومدينة تونس العاصمة.



الشكل (I-14): تضاعف النسيج القديم بمدينة فاس - المغرب-
المصدر: (Kadri, S, 2006).

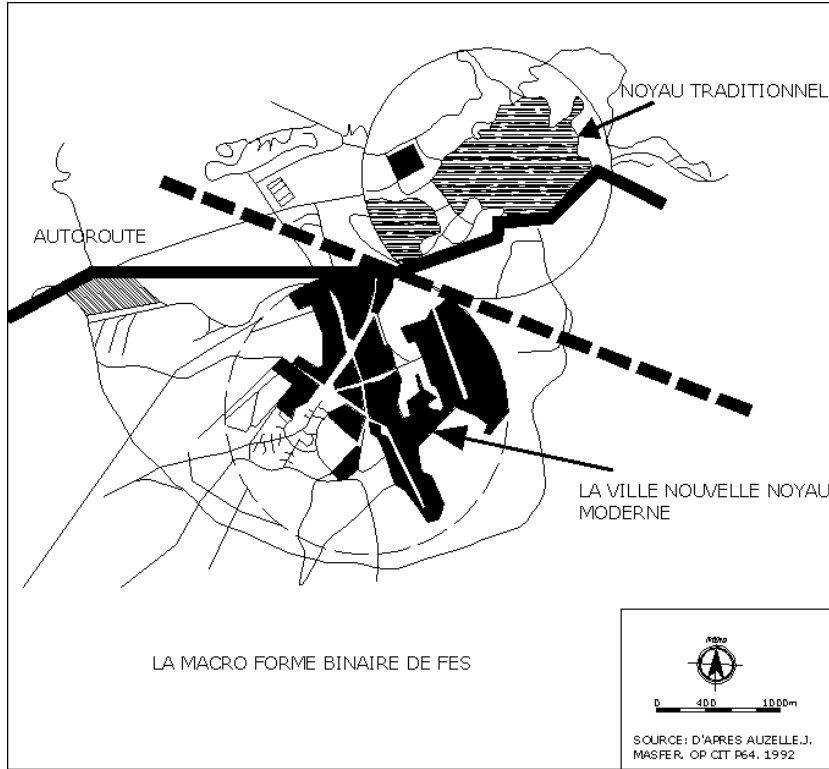


الشكل (I-15): تضاعف النسيج القديم بمدينة ميلة - الجزائر-
المصدر: (Kadri, S, 2006).

وفي هذا النمط من أنماط التوسعات نشهد وجود مشاكل في الربط والتواصل بين الأنسجة الجديدة والقديمة حيث تبدأ تظهر حالة من الموت والاندثار البطيء للنسيج العتيق وذلك بظهور مكونات ومرافق عمرانية جديدة داخل الأنسجة الجديدة لا تمت بأي علاقة للنسيج العتيق لا على مستوى المخطط المجالي ولا على مستوى المخطط الوظيفي، وكذلك بتسجيل ظهور شكل جديد لاستهلاك المجال بواسطة ظهور شبكة جديدة من خطوط المواصلات والتجارة لا تأخذ في الحسبان النسيج العمراني القديم.

وبإلقاء نظرة متفحصة نجد أن هذا النوع من التطور للأنسجة العمرانية يؤدي في أغلب الأحيان إلى نشوء قطبين مختلفين بالمدينة في آن واحد، أحدهما عتيق ومركز وذو كثافة مرتفعة بمسالك ضيقة للراجلين، وآخر حديث ذو مسالك واسعة وساحات كبيرة قابل للتوسع والتطور مستقبلا.

هذا الفصل والقطيعة بين النسيجين العتيق والحديث يؤدي أيضا إلى إضفاء نوع من الخصوصية والاحتكارية الوظيفية، فنجد في أغلب الأحيان أن النسيج العمراني القديم يتميز بظهور أنشطة ذات طابع حرفي كالأسواق الشعبية والفنادق ومحلات بيع التحف، في حين نجد أن الأنسجة العمرانية الحديثة تكون متمركزة بها الأنشطة الجديدة كدور السينما والتجارة الحديثة ومراكز الخدمات، لكن أهم شيء يلاحظ هو تركيز الخدمات الإدارية في النسيج الجديد مما يضيف نوعا من عدم التوازن الذي يؤدي بالتدريج إلى اندثار العالم القديم.



الشكل (I-16): الفصل بين النسيجين القديم والجديد.

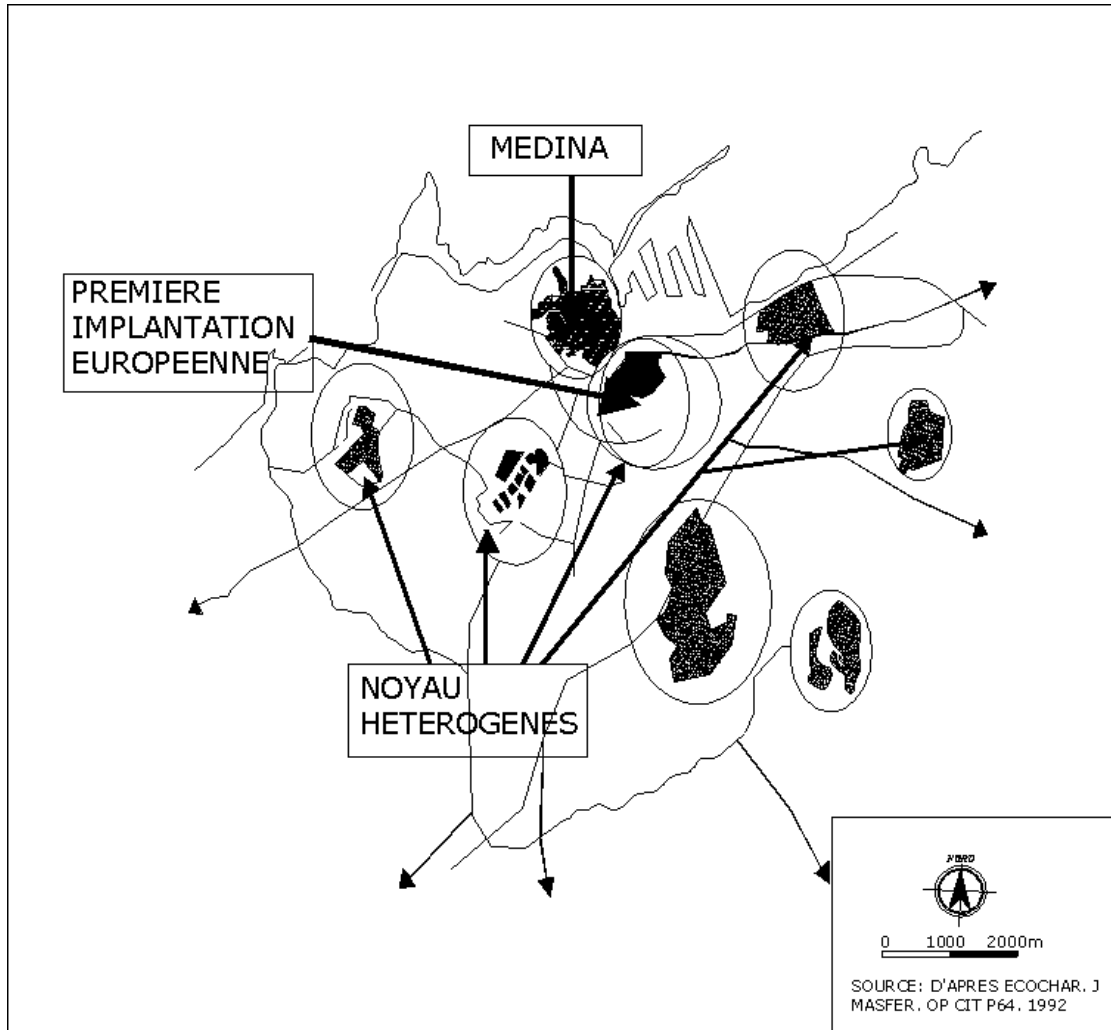
مدينة فاس - المغرب -

المصدر: (Kadri, S, 2006).

(9-4-2 - التطور بانفجار الأنوية القديمة :

ويقصد به تشكل أنوية جديدة على حدود وحواف النواة الأولية أو القطب الأصلي وكمثال على هذا مدينة الدار البيضاء بالمغرب الأقصى، كما أن هذا النوع من التوسعات العمرانية يساعد على ظهور عدة تجمعات عمرانية مبعثرة ومتفرقة تشغل مساحة كبيرة من الإقليم.

وما يميز هذا النوع من الانتشار هو بقاء النواة الأصلية محافظة على خصائصها الأصلية حيث أن الأنوية الجديدة تنمو وتتوسع خارج حدود القطب الأصلي مما يشكل المدن القصدية والأحياء العشوائية.



الشكل (I-17): التطور بانفجار الأنوية القديمة.

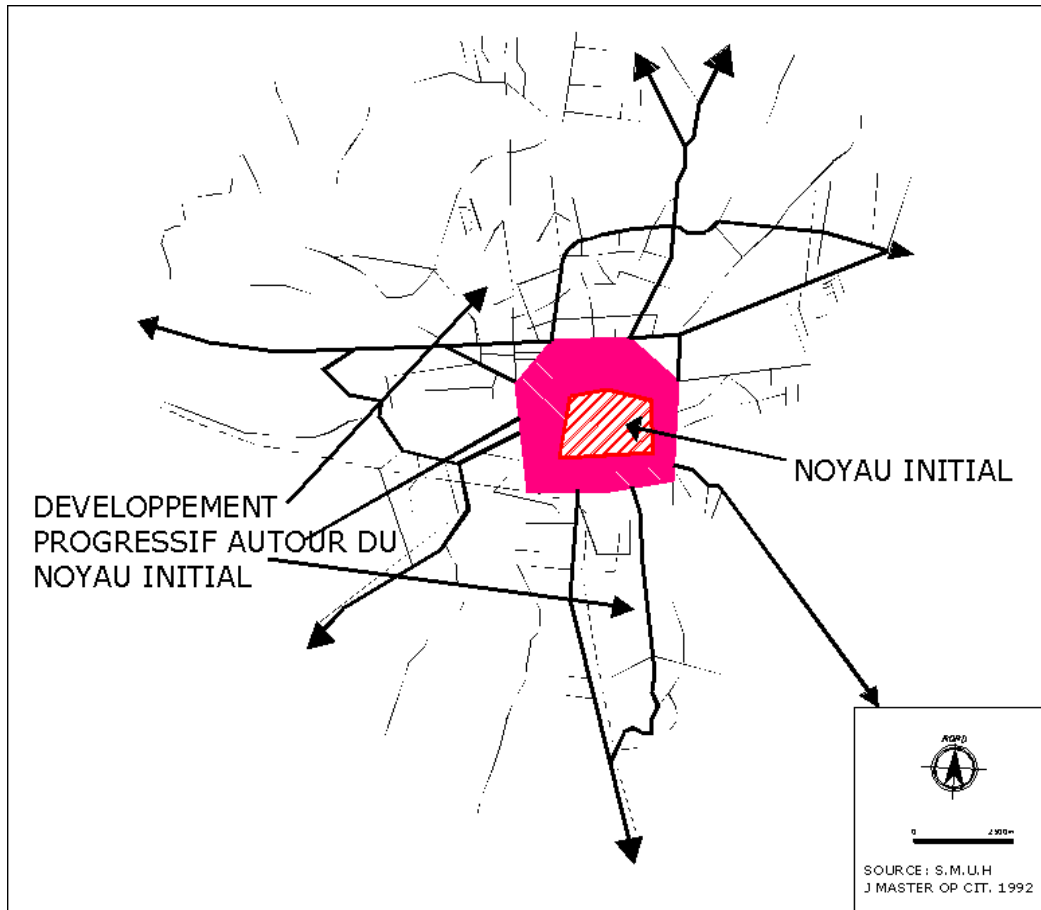
مدينة الدار البيضاء - المغرب -

المصدر: (Kadri, S, 2006).

(9-4-3 - التطور المتراص للأنسجة العمرانية :

في هذا النوع من التطور تنمو الأنسجة العمرانية وتمتد بصورة متراصة ومتدرجة على محيط النواة الأولى مما يؤدي إلى ظهور نوع من المركزية حول النواة الأصلية، حيث تصبح هذه الأنسجة الجديدة محيطة بالنواة الأصلية من عدة جهات الوظيفية منها والمجالية مما يجعل النواة الأولى تحت تأثير هذه الأنسجة العمرانية الجديدة مما يؤدي إلى طمس المعالم النوعية للنسيج العتيق، ولتحقيق التعايش بين النموذجين ينبغي القيام بتحويل مجالي، فتنشأ ظاهرة تحويل وتعويض للمنازل القديمة ببنائات معاصرة وتوسيع الشوارع والطرق للاستجابة للتطور في حركة المواصلات.

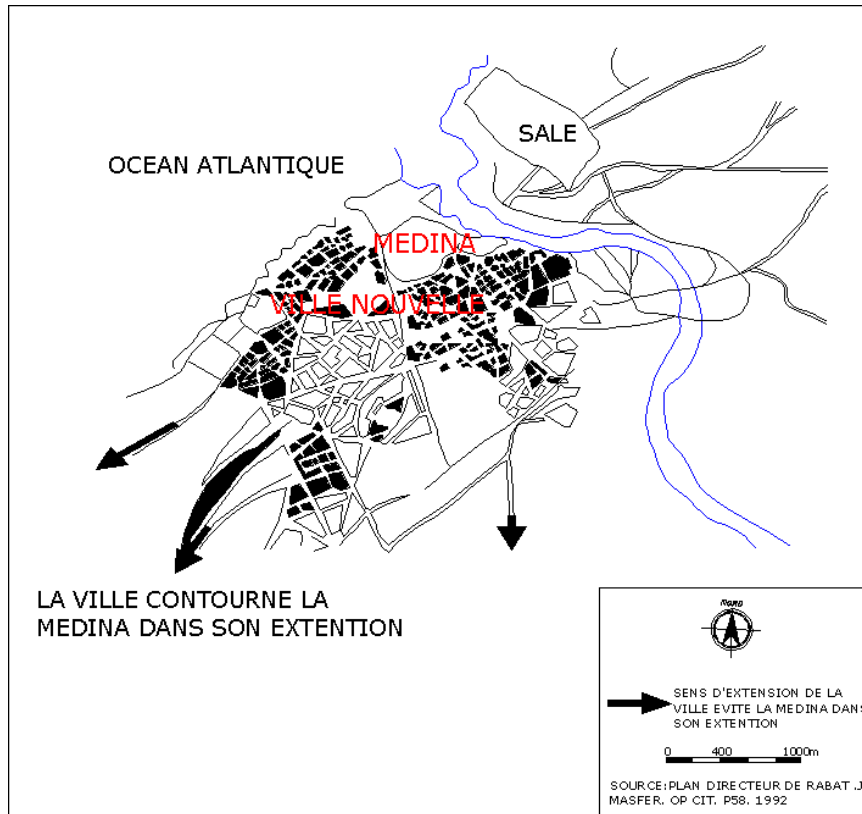
فالملاحظ المتفحص لهذه الحالة وهذا النمط من التوسعات يجد أن الأنسجة العمرانية العتيقة تصبح بشكل تلقائي متضمنة ضمن النسيج العمراني الجديد فهو يشكل ظاهرة خناق للنسيج العتيق وكمثال على ذلك مدينة القصبة بالجزائر العاصمة.



الشكل (18-I): التطور المتراص على حدود النواة الأصلية.

المصدر: (Kadri, S, 2006).

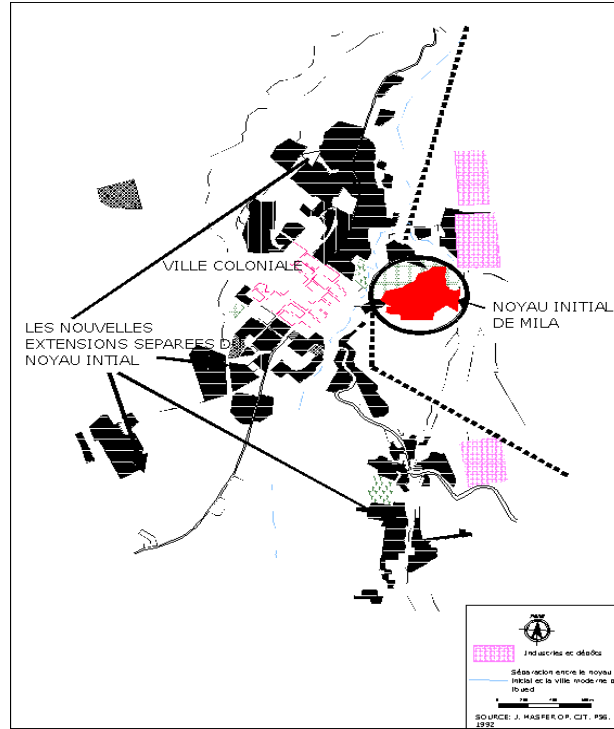
وبإلقاء نظرة متفحصة نجد أن الأنسجة العمرانية العتيقة تتجذب وببطء نحو مشابهة الأنسجة العمرانية الجديدة وأول بواعث هذه الظاهرة تبدأ على مستوى الحدود ثم تزحف تدريجياً نحو المركز، هذا يؤدي حتماً إلى القضاء على الإرث المعماري والعمراني القديم بتعويض تلك المباني العتيقة بأخرى معاصرة، فنشهد ظاهرة زحف عمراني للأنسجة الجديدة على حساب الأنسجة التاريخية، فتبدأ نهاية الأنسجة العمرانية العتيقة عن طريق ذوبانها واضمحلالها وسط مجموعة الأنسجة العمرانية الجديدة ونفقد بذلك ثروة لا تعوض، في حين توجد بعض المدن التي ظلت محافظة على سلامتها إبان الفترة الاستعمارية ونعني بذلك تلك المدن التي لم يعرف نسيجها العمراني أي تدخلات غير بعض التعديلات على التنظيم الداخلي للمجال وبعض المرافق العمرانية التي أصبحت فيما بعد تشكل عنصراً هامشياً وسط محيطها العمراني وكمثال على هذا نذكر مدينة الرباط بالمغرب الأقصى ومدينة ميلة بالشرق الجزائري أين قام الاستعمار بإنشاء أقطاب جديدة باتجاه الغرب سنة 1868م.



الشكل (19-I): زحف الأنسجة الجديدة على الأنسجة العتيقة.

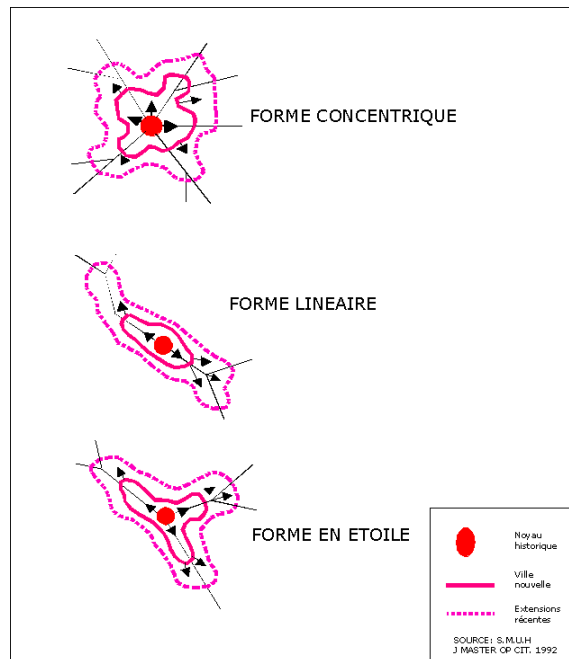
مدينة الرباط - المغرب -

المصدر: (Kadri, S, 2006).



الشكل (20-I): محافظة النسيج العتيق على خصائصه رغم التوسعات الجديدة - ميله-
المصدر: (Kadri, S, 2006).

إن تطور الأنسجة العمرانية يؤدي إلى فقدانها العديد من العناصر الدالة على التراث والهوية العرقية والاجتماعية والاقتصادية... الخ، ومما يفقده النسيج العمراني القديم بعد عمليات التوسع والتطور شكله فيأخذ بعد عمليات التطور أشكالاً عديدة ومختلفة منها المركزية والخطية والنجمية.



الشكل (21-I): الأشكال الجديدة للمدن.
المصدر: (Kadri, S, 2006).

(9-5- أنماط الأنسجة العمرانية

بالنظر إلى الجانب الذي ينظر منه الباحث فإنه قد نجد العديد من التصنيفات للأنسجة العمرانية، وقد أكد (Allain, R, 2004) على وجود أربعة (04) أنماط للأنسجة العمرانية عددها كما يلي:

*** النسيج القديم:**

ويميز المدن القديمة التي تضم مباني شعبية وفنية يصعب إعادة بناءها وترميمها ويرجع ذلك إلى تغير الشروط الموافقة لتغير الزمن.

*** الأنسجة المركبة والمبرمجة:**

وهي مركبة أساسا على التحصيلات وتعد الأكثر انسجاما.

*** النسيج (Fordistes):**

وهي أنسجة مركبة وعشوائية متواجدة عند مداخل المدن.

*** الأنسجة الغير متصلة بالمدن الكبيرة:**

وتكون متموضعة على الحواف العمرانية بصفة تمديدية للمركز في بعض الأحيان، أما بالنسبة للعلاقات بين المباني فتكون متباعدة، أما التحصيلات العقارية فهي ضعيفة الكثافة.

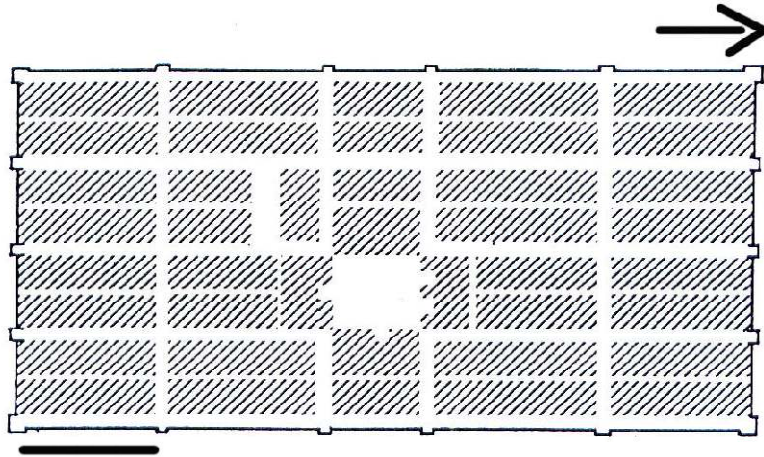
وبالنظر إلى أشكال الأنسجة العمرانية فقد قام (Pelletier, J & Delfante, Ch, 2000) بتصنيفها إلى:

*** مخططات الشبكات المستطيلة والمربعة:**

وتضم شبكة من الطرقات المتعامدة، كما أنها تمثل النسبة الأكبر من تعداد الأنسجة العمرانية وهي مشتقة أصلا من مخططات (Hippodamos) " وهو مهندس إغريقي عاش في القرن الخامس قبل (05) الميلاد ولد في ميليتوس وكان يعتمد في تخطيط الشوارع على الشكل الشبكي، كما قام بتطوير ميناء بيرايوس في العاصمة أثينا، وينسب إليه بناء مدينة رودس الجديدة." (la rousse 2008)

(la rousse 2008)

ونجد هذه المخططات في المدن الرومانية حيث تعتمد هذه المدن على محورين أساسيين هما (le Decumanus) و (le Cardo) وهما محوران تتعامد عليهما الطرق الفرعية، وكذلك توجد هذه المخططات بالمدن الأيونية بآسيا الصغرى، إضافة إلى المدن الصينية لكنها تمتاز بدرجة من التعقيد بسبب تأثيرات مبادئ (Cosmogonique) وهي متعلقة أساسا بنظرية تشكل العالم.



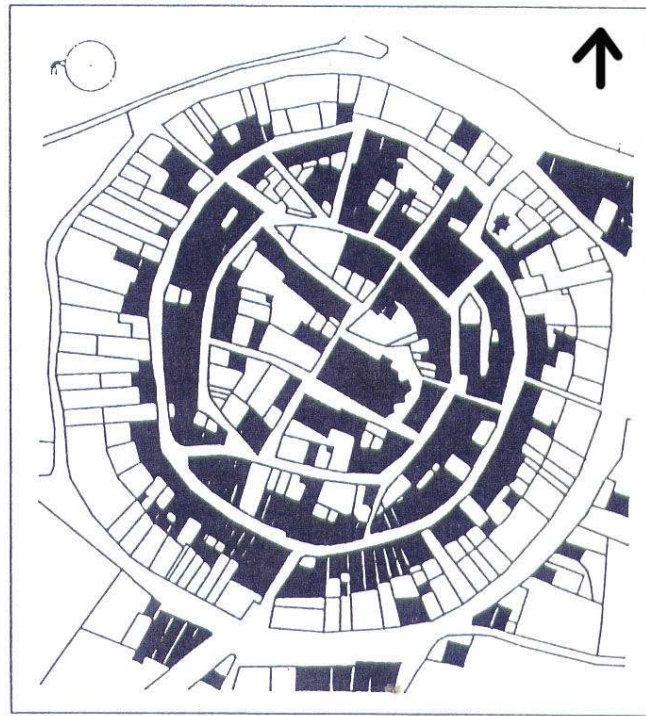
الشكل (22-I): مخطط شبكي مستطيل

مدينة Monpazier بفرنسا

المصدر: (Pelletier, J & Delfante, Ch, 2000).

* المخططات الدائرية والشبه دائرية:

وحظي بشهرة واسعة في أوروبا الغربية ضمن حقبة القرون الوسطى وكذلك حتى عند المسلمين حيث تنتظم هذه الأنسجة العمرانية حول عناصر مهيكلة مركزية ذات أهمية بالغة عند السكان المحليين (قصر، مسجد، كنيسة، ...) حيث نجد أن الشبكات والأنسجة الصغيرة تكون دائما على الحواف الخارجية مما يضمن أن التوسعات المستقبلية تكون دائما ذات منحى عضوي.



الشكل (23-I): مخطط إشعاعي مركزي

مدينة Bram بفرنسا

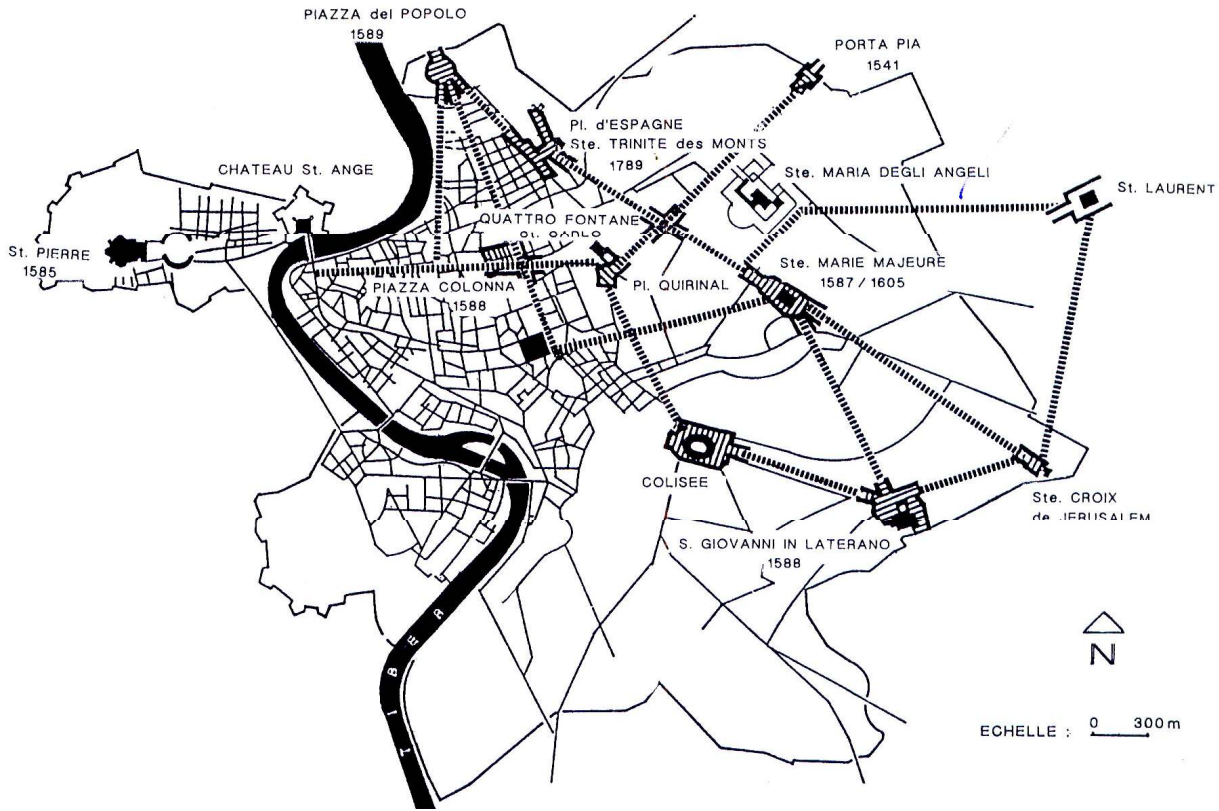
المصدر: (Pelletier, J & Delfante, Ch, 2000).

*** المخططات الهندسية المعقدة:**

وكانت بداياتها مع بداية العمران الحديث أي بدءا من النهضة الأوروبية، حيث انصب اهتمام العمرانيين على الناحيتين الجمالية والوظيفية:

- فمن الناحية الجمالية: يتجلى ذلك من خلال إعطاء قيمة أكبر للطرق والساحات التي تضم معالم أثرية لتحقيق المناظر.

- أما من الناحية الوظيفية: فبدأ الاهتمام بها في القرن الثامن عشر (18) مصاحبا للتطورات على مستوى الحركية والتعمير.



الشكل (I-24): التعقيد الباروكي للرسومات يساهم في خلق عقد رمزية.

المصدر: (Pelletier, J & Delfante, Ch, 2000).

وقد قام (عبد الرحيم أبو العيون. أ، 1996) بدراسة الأنسجة العمرانية المصرية وأكد أنها تجمع كثيرا من الأنماط العمرانية والتي تبدو لنا كمزيج من التفاعلات الماضية والحاضرة تحمل في طياتها تأثير العوامل والظروف التي نتجت عنها، ويمكن حصر هذه الأنسجة في:

*** الأنماط العمرانية التاريخية التلقائية القديمة:**

وهو متواجد أصلا في المدن القديمة التي تضم نسيجا عمرانيا جد معقد لكنه في الوقت الحالي يعجز عن تلبية متطلبات العصرية.

*** الأنماط العمرانية الحديثة والمعاصرة:**

وهي متواجدة عموما عند أطراف المدن والتكتلات العمرانية الحديثة، وهي تبدو وتظهر بها سمات التغيير عن الأنماط التلقائية القديمة، فهي تبدو أكثر تنظيما وتحقيقا لمطالب العصرية.

*** الأنماط العمرانية العشوائية:**

تعاني هذه الأنسجة من عدة مشاكل عمرانية واجتماعية واقتصادية ولا تخضع لأي ضوابط تتحكم في تخطيطها أو تنظيمها وتتواجد غالبا عند أطراف الكتل العمرانية للمدن القائمة.

*** الأنماط العمرانية الريفية:**

وتتواجد هذه الأنماط عند حدود التجمعات العمرانية، حيث يغلب عليها الطابع الريفي بكل مقوماته وهي بيئة عمرانية متدهورة تخطيطيا وغير صحية وتشكل خطرا بالغا على استقرار المدن.

(9) -6- الأسباب الأساسية المساهمة في تغير الأنسجة العمرانية:

لقد مرت الأنسجة العمرانية في رحلة تطورها ونموها وتحولها بنفس الإجراءات والمراحل تقريبا ويمكن ذكر آراء بعض الباحثين حول ذلك، فقال (إبراهيم بن يوسف، 1999) >> إن الديناميكية الاجتماعية والاقتصادية تساهم في وظيفة وتنظيم المجال الفيزيائي.<<

وبعد الدراسة التي قامت بها على اليمن تحت عنوان " التطور الاقتصادي والتغير المعماري " أكدت الدكتورة (منى سراج الدين، 1983) أن التحول الاقتصادي المصاحب للتحويلات الاجتماعية والثقافية الحاصلة بالمنطقة تساهم بشكل كبير في التأثير على العمارة كما ونوعا. " ومنه فإن التغير في الأنسجة العمرانية يرجع ويقسط وافر إلى هذه العوامل الثلاثة: الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

(9-6-1 - العامل الاجتماعي):

ويعد من أهم العوامل المساهمة في تغيير الأنسجة العمرانية، ولكن وحتى يسهل ربط تأثير العامل الاجتماعي على تغيير الأنسجة ينبغي في البداية معرفة مفهوم التغييرات الاجتماعية وأنواعها، فقد عرف كل من **جيرث** و **ميلز** التغيير الاجتماعي على أنه التحول الذي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد والنظم الاجتماعية في مدة زمنية معينة. في حين أن كل تغيير يطرأ على البناء الاجتماعي في الكل والجزء وفي شكل النظام الاجتماعي يعتبر تغييرا اجتماعيا عند **جنزبرج** ولذا فإن كل الأفراد يمارسون أدوارا اجتماعية مختلفة عن تلك التي كانوا يمارسونها في حقبة من الزمن. وعرف (حجازي. م-ف، 1987) التغيير الاجتماعي على أنه " أي تحول بنائي يطرأ على المجتمع في تركيبه السكاني ونظمه ومؤسساته وظواهره الاجتماعية والعلاقات بين أفرادها وما يصاحب ذلك من تغييرات في القيم الاجتماعية والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة."

(9-6-1-1- التغيير في النظام والتركيب الاجتماعي):

ونقصد به التغيير الذي يطرأ على التركيبة الأسرية خاصة، ومنه فالتغيير يصيب النظم القبلية عامة وهي تتكون كما عند (آل عبد الكريم. ف. ب. ع. ك، 2004) من العناصر الآتية:

(أ)- القبيلة:

وهي جماعة الناس ذات الأصل الواحد والمكونة من عدة بطون وعشائر يسكنون إقليما واحدا ويتكلمون لهجة موحدة ولهم ثقافة متجانسة وعصبية تجاه بعضهم ضد العناصر الخارجية، والقبائل منتشرة في كل أنحاء العالم منها البائدة مثل قبائل **الجرمانيين**، ومنها من هو في حال الاندثار مثل قبائل **الهنود الحمر**. وإذا ما استقرت جماعة من العشائر وتشكلت بينها عاطفة الجماعة فإنها تعد هي الأخرى قبيلة عند علماء الاجتماع ويدخل في هذا حتى القبائل البدوية التي تمتاز بالترحال.

(ب)- الأسرة والعائلة:

من الناحية اللغوية أسرة الرجل هي عشيرته ورهطه الأذنون الذين يتقوى بهم، والأسرة هي عشيرة الرجل وأهل بيته وهي مشتقة أصلا من الأسر المتضمن لمعنى القيد والإحكام والقوة.

وعند **أرسطو** الأسرة هي تنظيم طبيعي تدعو إليه الطبيعة، أما **أوجست كونت** فيرى أنها الخلية الأولى في بنية المجتمعات ومنه فأى تطور يبدأ من مستواها، ويعرفها **جون لوك** أنها مجموعة أشخاص ارتبطوا بروابط الزواج والدم والاصطفاء مكونين حياة معيشية مستقلة يتقاسمون نعيم العيش وشقاؤه، أما **نيمكوف** فقلل من هذا كله وقال إن الأسرة هي مجرد رابطة اجتماعية من زوج وزوجة وأبنائهما، في حين أن الأسرة هي مؤسسة اجتماعية تنبعث من ظروف الحياة والطبيعة التلقائية للنظم والأوضاع الاجتماعية كما يراها **مصطفى الخشاب**.

أما الدكتور عبد الله العبادي فقد حدد أصنافا ثمانية للأسرة بالنظر لتراكيبها الاجتماعية وهي كالاتي:

* الأسرة النووية: وهي مكونة من الوالدين والأبناء الغير متزوجين كما يمكن يقيم بها أحد الأقارب كالعم أو العمة أو... الخ.

* الأسرة الممتدة: وتتكون من الأبوين والأبناء المتزوجين والغير متزوجين والأقارب الآخرون حيث يقيمون كلهم في بيت واحد تحت حكم كبير العائلة، والشيء الملاحظ أن هذا النوع من الأسر هو الذي كان يقيم بالمدن القديمة.

* أسرة التوجيه: وهي أقل من الأسرة النووية حيث تقتصر على الأب والأم والأبناء الغير متزوجين وهي في الأصل أسرة نووية في مراحلها الأولى.

* أسرة الإنجاب: وتكون إذا تزوج احد الأبناء من الأسرة النووية واستقل بعيشه تسمى حينها الأسرة النووية بأسرة الإنجاب.

* الأسرة الزوجية: وهي مطابقة تماما لأسرة التوجيه.

* أسرة الوصاية: ويشغل أعضاء هذه الأسرة كأوصياء على اسم الأسرة وأملاكها.

* الأسرة المنزلية: وهي مشتقة من أسرة الوصاية ولكن بسلطة أقل.

* الأسرة الذرية: ويكون بها الحد الأدنى من السلطة للأسرة.

وهذه العناصر المذكورة سالفا هي التي يطرأ عليها التغيير وذلك لموافقة مستجدات الحياة فينتج عنه تغير في الأنسجة العمرانية تبعا لما يلحق بالتراكيب الاجتماعية من تغيرات.

(9-6-1-2- أثر التحولات الاجتماعية على الأنسجة العمرانية:

يقول (نصير عبد الرزاق حسج البصري، 2007) >> تمتاز المدينة بكونها ذات طبيعة إنسانية وذلك وفق ثلاث طبائع حيوية ونفسية واجتماعية، والمدينة تلقائية النشأة حيث تكون في البداية مجرد مجموعة متناثرة من المنازل التي بنيت لمجرد الإيواء ثم تجتمع لتعطي القرية وتتسع القرية نتيجة للتزايد في السكان وتتنوع حرفهم ويزداد الدخل القومي في القرية لتتحول إلى مدينة صغيرة، وعندما تتوافر بها المصانع ووسائل المواصلات والخدمات فإنها تنمو لتصبح مدينة رئيسية وهذا يعني أن المدينة كظاهرة اجتماعية ليست من صنع أفراد ولكنها من صنع المجتمع وبوحي من العقل الجماعي.<<

فبتحليل هذا الكلام يتضح مما لا يدع مجالا للشك أن للتغير في التراكيب الاجتماعية وبنية الأسر أثرا بالغا ومهما في تغير وتطور الأنسجة العمرانية، فتغير نمط الحياة الاجتماعية يدفع إلى التغيير في الممارسات الاجتماعية الحياتية والوظائف الاجتماعية وبالتالي بروز أنواع أخرى من المرافق داخل المدينة لم تكن موجودة في الأصل أو كانت موجودة لكن تبدو بنمط آخر جديد، كما إن سرعة النمو الديموغرافي يتطلب سرعة في إنجاز كم معين من السكنات تلبي حاجات المجتمع، أما العامل الأكثر تأثيرا فهو التغير في الهيكلية الأسرية جراء الانفجار العائلي وهو انتقال العائلة التي كانت

من قبل تضم (الوالدين والأبناء بجيل أو جيلين) إلى عائلة بجيل واحد أي الانتقال من الأسرة الممتدة التي كانت متواجدة داخل القصور إلى الأسرة النووية والتي تسعى إلى العيش برفاهية أكبر بصيغة جديدة من متطلبات ومرافق فنتج نمط جديد من السكنات يهدف إلى كسر البنية الاجتماعية للعائلة بحيث تكون لكل أسرة مسكنها الخاص.

(9-6-2 - العامل الاقتصادي:

الاقتصاد هو العلم والفن الذي يهدف إلى تنظيم وتقويم عملية إنتاج وتوزيع واستهلاك الثروة، ومن الناحية اللغوية فهو مشتق من القصد وهو الاعتدال والتوسط بين الإسراف والتقتير، أما عند **ليونيل روبنز** >> فهو علم يهتم بدراسة السلوك الإنساني كعلاقة بين الغايات والموارد النادرة ذات الاستعمالات <<

فمن هذا التعريف يتضح لنا أن الاقتصاد يعد كأحد فروع علم الاجتماع لاهتمامه بدراسة السلوك لكن باتجاه غاية معينة وهي الإنتاج والاستهلاك، أما عند (عبد العال صالح. م، 2005) فهو العلم الذي يبحث في كيفية إدارة واستغلال الموارد الاقتصادية النادرة لإنتاج أمثل ما يمكن إنتاجه من السلع والخدمات لإشباع الحاجات الإنسانية من متطلباتها المادية التي تنسم بالوفرة والتنوع ضمن إطار معين من القيم والتقاليد والتطلعات الحضارية للمجتمع، كما يبحث في الطريقة التي توزع بها هذا الناتج الاقتصادي بين المشتركين في العملية الإنتاجية بصورة مباشرة وغير المشتركين بصورة غير مباشرة في ظل الإطار الحضاري نفسه.

ولكن وحتى تسهل معرفة كيفية تأثير العامل الاقتصادي على تغير الأنسجة العمرانية يجب علينا أولاً معرفة التحولات الحاصلة على الجانب الاقتصادي وخاصة الأنشطة التي تتغير مع مرور الزمن ومنه فإننا سنتطرق إلى النشاطات الاقتصادية المميزة للقطاعات الأساسية.

والنشاطات الاقتصادية تنسب في أغلب الأحيان إلى قطاعاتها المميزة (القطاع الأولي، القطاع الثانوي، القطاع الثالثي) وكذلك هو تقسيم النشاطات الاقتصادية وفقاً لطبيعتها والسلع المنتجة.

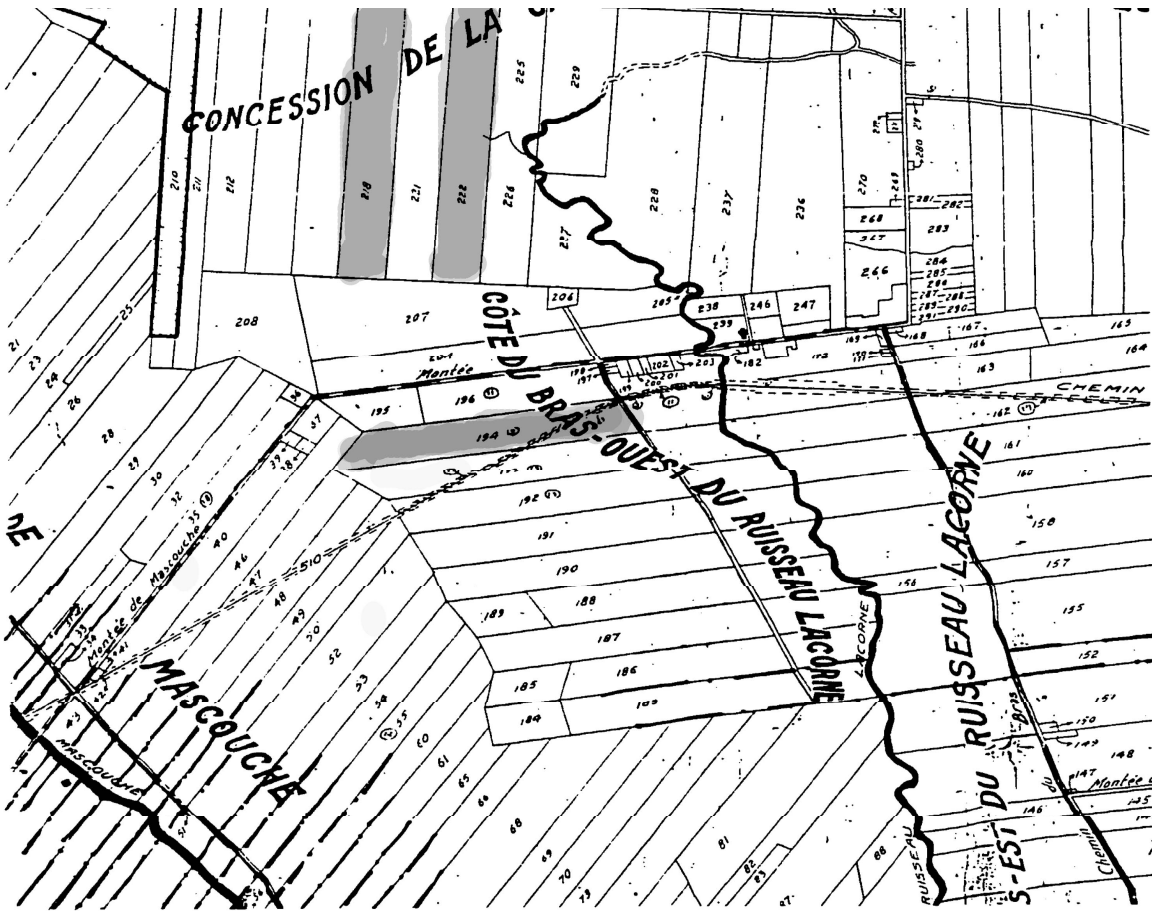
* القطاع الأولي: وهو مجموعة النشاطات الاقتصادية المساهمة بإنتاج المواد الأولية (الزراعة).

* القطاع الثانوي: وهي مجموعة النشاطات الاقتصادية الصناعية المساهمة في تحويل المواد الأولية إلى منتجات استهلاكية وإنتاجية.

* القطاع الثالثي: ويجمع النشاطات الاقتصادية التي تساهم في توفير الخدمات للأفراد والجماعات والشركات. (إدارة وتجارة).

(9-6-2-1- أثر التحولات الاقتصادية على الأنسجة العمرانية:

ويكمن التغيير عند انتقال المدينة من صيغة إلى صيغة أخرى أي وبعبارة أخرى انتقال المدينة من قطاع إلى قطاع آخر مثلا انتقال مدينة ما من القطاع الأولي إلى القطاع الثانوي فينتج معه انتقال المدينة وتغير سماتها وكمثال على ذلك نذكر ما توصل إليه (Racine, F, 1999) بعد دراسته لمدينة Sainte-Anne-Des plaines حيث أكد أنه بعد انتقال المدينة من النشاط الزراعي إلى النشاط الصناعي وذلك على مدى مرحلتين كانت أولهما عام 1900م والثانية عام 1955م صاحب هذا تغير على مستوى الأنسجة العمرانية للمدينة وتحديدًا على مستوى التخصيصات حيث ازداد عددها وهذا راجع إلى زيادة عدد السكان العاملين بالمصانع في هذه المنطقة.

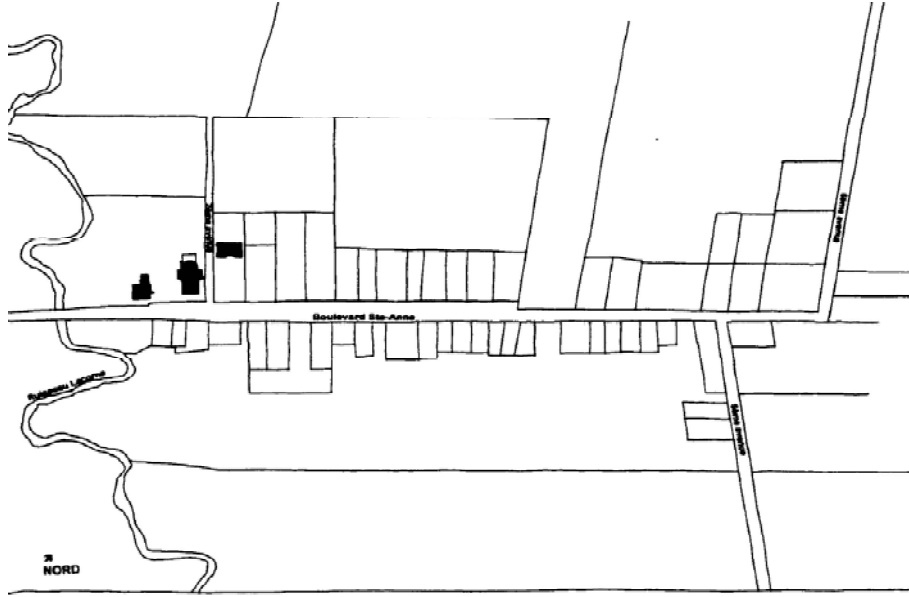


الشكل (25-I): التقسيمات التخصيصية لمدينة

Sainte-Anne-Des plaines

في الفترة 1889م.

المصدر: (Racine, F, 1999).

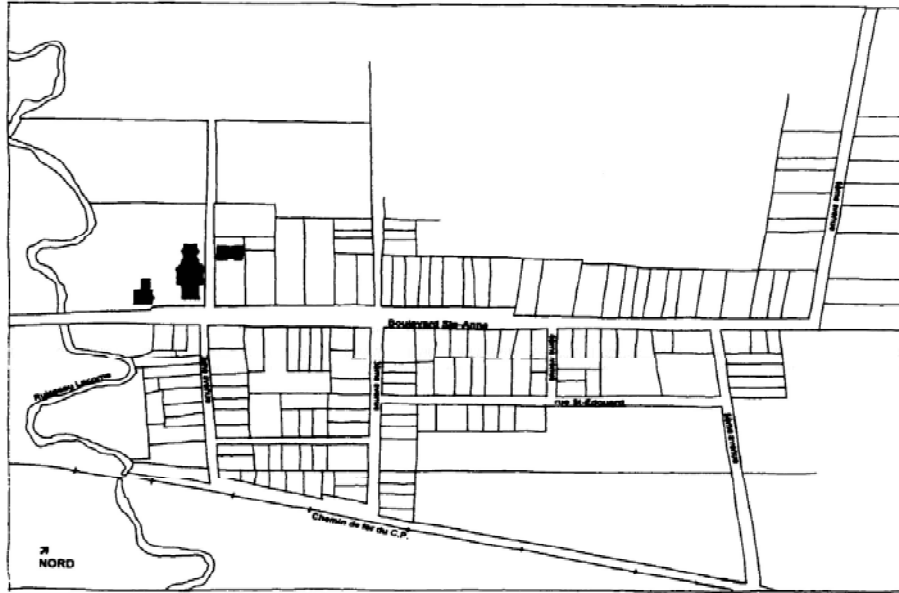


الشكل (I-26): التقسيمات التحصيلية لمدينة

Sainte-Anne-Des plaines

في الفترة 1900م.

المصدر: (Racine, F, 1999).



الشكل (I-27): التقسيمات التحصيلية لمدينة

Sainte-Anne-Des plaines

في الفترة 1955م.

المصدر: (Racine, F, 1999).

(9-6-3 - العامل الثقافي):

لغويا الثقافة مأخوذة أصلا من كلمة " ثقف " والتي من معانيها كما قال الفيروز أبادي: ثقفه أي صادفه أو اخذ هاو ظفر به أو أدركه كما قال تعالى " فإما تتقنهم في الحرب فشرده به من خلفهم لعلهم يذكرون " (الأنفال -58-)، وأتقنته أي قيض لي، كما من معانيها أيضا ثقف يتقف ثقفا وثقفا وثقافة صار حاذقا خفيفا فطنا ومنه ثقف الكلام حدقه وفهمه بسرعة، وثقف الرمح إذا قومه وسواه، وثقف الولد إذا هذبه وعلمه، وثاقفه مثاقفة غالبه فغلبه في الحذق والذكاء. وقال بن منظور في لسان العرب: ثقف جدد وسوى، وفي المعجم الوسيط الثقافة هي العلوم والمعارف والفنون التي يطلب فيها الحذق.

(9-6-3-1- التحولات الثقافية):

التحول الثقافي وكما ورد عند (العمرى. ع-أ، 2007) هو كل تحول له علاقة بالجوانب الثقافية وهو أعم وأشمل من التحولات الاجتماعية حيث عرف تايلور الثقافة أنها الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف وبذلك يكون التغيير الاجتماعي جزءا من التغيير الثقافي أو جانبا منه. كما يمكن أن نعدد بعض مميزات التحول الثقافي:

- عملية تحول وتفكك يتولد عنه كثير من العلل.
- يقوم على الحراك المفاجئ والسريع.
- يعتمد على رأس المال الأجنبي الذي ينجم عن الاتصال الخارجي مع الثقافات الأخرى.
- يقتصر على التغييرات التي تحصل في المجتمع.

وبإلقاء نظرة متفحصة على العنصر الأخير يتضح لنا جليا أن بين التحول الاجتماعي والتحول الثقافي علاقة عموم وخصوص، فالتحول الاجتماعي هو ضمن التحول الثقافي من حيث مجالاته وميادينه فالتحول الاجتماعي هو احد مجالات وفروع التحول الثقافي، بينما يجد التحول الثقافي نفسه محصورا ضمن نطاق وفضاء التحول الاجتماعي من حيث مكانه فالتحول الثقافي إنما يكون في المجتمعات.

(9-6-3-2- أثر التحولات الثقافية على تغيير الأنسجة العمرانية):

إن أثر التحولات الثقافية على الأنسجة العمرانية يؤثر بصفة كبيرة على المنشآت والمرافق ذات الطابع الثقافي من خلال التأثير على قيمتها ووزنها ومدى الاهتمام بها وإقبال الناس عليها كالمدارس والمكتبات ودور الثقافة والمسرح، مما يبدي قيمة الثقافة في المجتمع ومستوى الإدراك والوعي الثقافي لدى الشعوب، كما أن للتحولات الثقافية أثرا على الأنسجة العمرانية من خلال التأثير على تنظيمها العمراني من خلال تحديد مناطق ذات تخصص ثقافي تضم هياكل ثقافية مما يترتب عليه ظهور أشكال عمرانية جديدة على غرار المناطق السكنية والتجارية والصناعية.

خلاصة:

تطرقنا في هذا الفصل إلى المفاهيم المتعلقة بالمدينة وكذا العلوم والفنون والمقاربات الساعية إلى الإحاطة بها في خطوة تهدف لإدراك الفهم الحقيقي لهذا الكيان الجد معقد، وقد اتضح لنا أن المدينة هي كيان جد معقد يصعب وضع مفهوم محدد له وذلك إذا ما نظرنا إلى خصائصها والتي نجدها تختلف من مدينة لأخرى بسبب ما تتصف به من سمات وأنواع وموقع جغرافي ودوافع النشأة وكيفية التخطيط وغيرها، ولذا فقد حاول كل صاحب اختصاص وضع تعريف لها من جهة تخصصه لكننا نجده يتسم بالقصور وعدم الإحاطة الكاملة بها إذ نجده يعنى بجانب محدد ويهمل بقية الجوانب الأخرى.

والمدينة أيضا ككيان فيزيائي يؤثر ويتأثر بما حوله من ثقافات السكان وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، فالمدينة تعد ذات طبيعة إنسانية وفق طبائع حيوية ونفسية واجتماعية وهي تلقائية النشأة لكنها ليست من صنع الأفراد وإنما هي من صنع المجتمع وبوحي من العقل الجماعي ومعنى هذا أن للتغير في التراكيب الاجتماعية وبنية الأسرة والتطور والتحول الثقافي أثرا بالغا في تطور الأنسجة العمرانية وذلك لما يصحب هذا التحول من تغير في الممارسات الاجتماعية الحياتية والوظائف الاجتماعية والهياكل الأسرية مما يؤدي إلى بروز وظائف جديدة في المدن تتطلب مرافق جديدة بمسميات جديدة.

ومنه نخلص إلى أن المدينة في حراك مستمر وفي حالة ديناميكية تطويرية تمس مظهرها الفيزيائي، وهذه الحركية هي نتاج لمختلف التحولات التي تطرأ على العوامل الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية، فالأنسجة العمرانية لا تمثل إلا استجابة لتلك العوامل وهي في نفس الوقت متماشية معها في علاقة تآثر وتأثير، وسنحاول في الفصل الموالي الحديث عن أوائل المدن المشكلة للعالم وقتها والتي ظلت إلى أمد بعيد تشكل معالم حضارة عظيمة راسخة بجذورها في أعماق التاريخ وهي المدينة العربية الإسلامية.

الفصل الثاني:

المدينة القديمة بين مطرقة

التجديد وسندان التقليد

مقدمة:

تشهد المدينة الجزائرية اليوم واقعا مؤلما وحالة من الذهول بين ما هو ماض لا يتماشى مع ما هو جديد وآخر مستحدث متعارض مع مبادئ المجتمع وعاداته وتقاليده ومبادئ دينه.

وبين أخذ ورد بين من يقول أن المدن القديمة كانت قائمة وترتكز أساسا على المعطيات الروحانية وأنها غير صالحة في الوقت الحالي، وغيرهم ممن يرى أن المدن الحديثة تركز أساسا على الجانب المادي وتهمل الجانب الروحي، وبين هذا وذاك ظلت المدينة ومازالت إلى اليوم تتخبط في حلقة ظلام دامس من الفوضى والتشتت وتسير في طريق معتم من التوسعات اللامدروسة التي لا تدري أين ستنتهي بها أفي مدينة متكاملة ومتجانسة تجمع بين الحداثة والأصالة حيث ينعم سكانها بالرفق والأمان، أم في مدينة فوضوية متضاربة يشقى سكانها ويغرقون وسط الفوضى والإجرام.

لقد تعرضت المدينة القديمة إلى حالة من التهميش بسبب النظرة السلبية نحوها والقول بأنها كانت صالحة لوقت معين مضى وانقضى، بل لقد تحامل البعض عليها ونعتها بأقبح نعوت ومن أمثلتهم قول **علي باشا مبارك** في وصف القاهرة أواخر القرن الثالث عشر (13) هجري كما أورده (جميل عبد القادر، أ، 1995) >> ... وأما الحارات فكانت كثيرة الانعطافات، ضيقة المسالك ليست على هيئة انتظامية، بل بعض البيوت بارز في الطريق والبعض داخل عنه وهذا من أسفل، أما من الأعلى فكانت بعض المشربيات تتلاصق من جوانبها وتتلاقى مع ما واجهها حتى تحدث سبابا مركبا على جميع الطريق فضلا عن الأسبطة الحقيقية...>>، وأما في وصف المنازل فيقول >> ... وأكثر محلات الدار قليل النور والهواء اللذين هما أساس الصحة وقل أن تخلو من الرطوبات التي تتولد عنها الأمراض>>

ثم يقول بعد ذلك واصفا المدينة عموما >> وبالجملة فقد كان الخراب عم والدمار طم وكثير من التلال داخل وسط الأماكن سوى ما في الخارج من التلال الشاهقة في الهواء الممتدة إلى أمد بعيد فإذا هبت الريح فهي القيامة، ولا ترى إلا غبارا منبثا على البيوت متلفا للصحة والعيون.>> هذه النظرة ساهمت بشكل كبير في اندثار المدن العتيقة ودفعت بالكثير من المصممين إلى غض الطرف عن المدن القديمة أثناء القيام بعمليات التصميم والتخطيط بسبب قناعتهم بأنها عبارة عن أزقة وشوارع ضيقة يغيب عنها التنظيم والانسجام، غير أن المدينة القديمة ذات الطرق الملتوية والتي لا نراها منتظمة هي أفضل ما يمكن الوصول إليه عند تلك المجتمعات، فهي تعد مدنا ذات جوهر رفيع المستوى وهنا ينبغي طرح هذا السؤال:

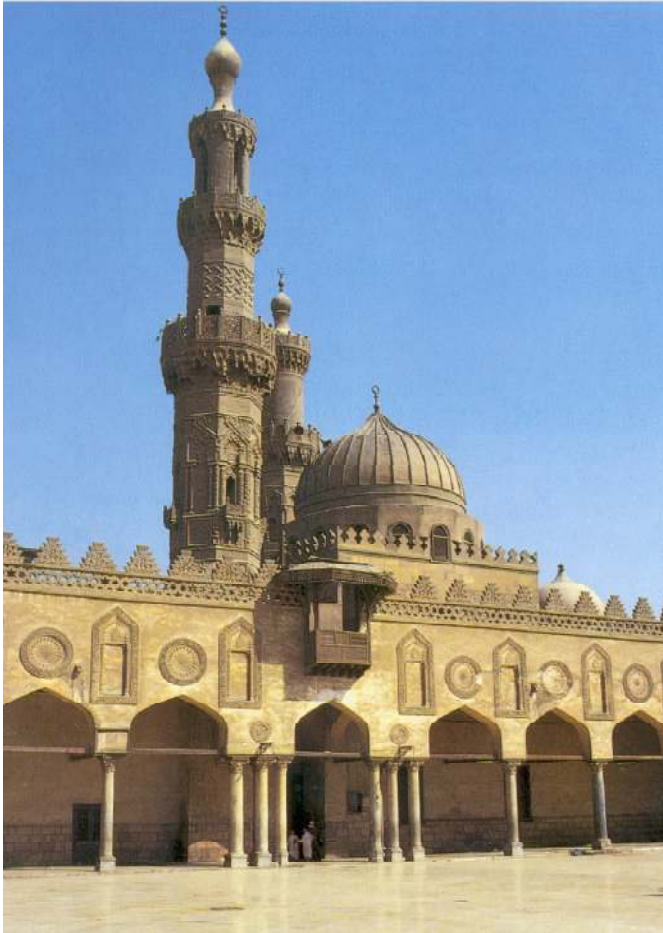
" أيعجز من أتقن بناء الواجهات الداخلية المحيطة بالأفنية الداخلية للمنازل والمدارس والمساجد وأبدع في الاعتناء بالفناء الداخلي ووضع الأشجار فيه وابهج في جمال الرسومات ونسب النقوش المزينة للعقود والقباب والأقواس على أن ينظم المخططات أو مواضع البنايات؟"



الصورة (1-II): مدرسة بن يوسف بفاس.

- المغرب الأقصى -

المصدر: (خلف الله. ب، 2005).



الصورة (2-II): الجامع الأزهر بالقاهرة

- مصر -

المصدر: (خلف الله. ب، 2005).

إن هذا التساؤل يدفع بنا إلى التأكيد على أن العمارة كانت نتاجا لتفاعل عدة ثوابت ومتغيرات فالثوابت هي الدين والمناخ والعرف، وأما المتغيرات فهي الإمكانيات الاقتصادية والصناعية.

وانطلاقا من الكلام الأخير يتضح وبصورة جلية أن أسلافنا فهموه حقا فغيروا ما يقبل التغيير وحافظوا على ثوابتهم فأنتجوا عمارة رغم اختلاف قلوبها إلا أن قلبها وجوهرها واحد، وللأسف وفي أيامنا هذه قمنا بتغيير شق المعادلة كله ثابتته ومتغيره فتغير لنا الناتج كله وأنتجنا إرثا معماريا مختلفا عن سابقه قلبا وقلبا رغم أن الثابت الأكبر (الدين) واحد، والمشكل الأكبر هو أن البعض ممن انبهر بالعمارة في الشمال قام بنقل عمارتهم كما هي وألصقها في مجتمعاتنا دون أن يدخل عليها أدنى تغيير مما يشير ولو بطرف سبابته إلى ملمح من ملامح عمارتنا وهويتنا وأصالتنا.

إن تصميم المدن وتجهيزها بكل مرافق ومتطلبات الحياة ومحاولة إدخال عناصر الترفيه لا يمكن أن يطرد عنها الملل والكآبة إذا تم هذا دون مراعاة لثوابت المجتمع، فنقل أفكار مستحدثة وغريبة وإهمال دور السكان ومتطلبات حياتهم سوف ينتج لنا ومما لا شك فيه مدنا وتجمعات حضرية لن تسلم يوما أن تطأها يد التغيير.

إن العمارة القديمة وكما أسلفنا هي نتاج لامتراج عدة عوامل وعلى رأسها ثوابت المجتمع، بينما نظيرتها الغربية هي نتاج لفكر بشري بحت ومجرد، ولا يمكن للعقل البشري وحده الإلمام بجميع الظواهر فمنها الخفية التي لا يتفطن لها المصممون والمخططون وأصحاب القرار إلا بعد فوات الأوان، ولذا فإننا لا نلبث أن نرى نظرية إلا وتفندنا أخرى بعد مدة منتقدة إياها بالنقص والقصور، فالعقل البشري وحده غير كاف لسن القوانين والتي منها قوانين البناء والتعمير، وحتى تلك القوانين التي يسنها ما هي إلا تصحيح لقرارات سابقة وستعقبها هي الأخرى قرارات مصححة لها.

كما أن نبز العمارة القديمة بعدم الانتظام لهو إجحاف في حقها، والغلط يكمن في إساءة الفهم بين ما هو غير منظم وبين ما هو غير منتظم، فالغير منتظم يعد منظما لكن بطريقة غير منتظمة لأن عدم الانتظام هو أحد أنواع التنظيم، في حين أن الغير منظم يمكن أن نطلق عليه لفظ العشوائي أي انه لا يخضع لنظام معين، فالبيئة التقليدية غير منتظمة في مخططاتها لأسباب مدروسة سيتم التطرق إليها في حينها عند ذكر مميزات المدن القديمة.

ولقد اختلفت آراء المعمارين والمخططين على حد سواء في محاولتهم استنباط أفكار معمارية وعمرانية من أجل محاكاة المدينة القديمة، فرأى البعض أن الإكثار من استعمال الزخارف والرسوم القديمة وتصميم الأفنية الداخلية والأزقة كاف لإنتاج عمارة قديمة، في حين لم يقنع البعض الآخرون بهذا واتجهوا نحو التركيز على النواحي الاجتماعية والاقتصادية للبيئة القديمة واستخدامات الفراغ ومحاولة تطوير عناصر البيئة القديمة لملائمة متطلبات العصر كبناء بيئة تنمي الترابط الاجتماعي وتلائم المناخ وبأقل التكاليف.

إن القصور العتيقة وطريقة بناءها وانسجامها وكثافة بناياتها وعمارته التقليدية ليست مجرد صدفة وإنما تعتبر معبرة بشكل واضح عن القيم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وعن التواصل بين الإنسان ومحيط عيشه.

كما أن التنظيم المجالي في القصور العتيقة يعد نتاج مجتمع منظم ومتماسك لتلبية حاجيات السكان فهو بهذا يعتبر إبداعا جماعيا ذا تنظيم محكم ينم عن مركزية عامة يمثلها المسجد الجامع، أما عن تنظيم الشوارع فنجد أغلبها قد نظمت على شكل تفرعات غصنية عكس التي نجدها في المخططات الحديثة المتوزعة في شكل شبكي منظم، وهذا الاختلاف نابع من تباين أهداف كل نموذج، فيهدف النموذج الحديث إلى تحقيق أكبر قدر من الحركة، بينما يهدف النموذج التقليدي إلى التقليل من الحركة.

أما عن المجالات في القصور العتيقة فهي تشهد تدرجا من الخارج نحو الداخل لتحقيق الراحة والخصوصية وحفظ الحرمات وتحقيق الأمن، فهذا التنظيم وإن دل فإنما يدل عن تنظيم يعكس حرص السكان على قيم متعددة أهمها الراحة والخصوصية والأمن وسلامة البيئة. وما يلفت انتباه المتجول في الشوارع هو مقياسها الإنساني، زيادة على ذلك وهو تغير المشهد في المسار الواحد، كما أن تقنيات ومواد البناء المستعملة في القصور العتيقة مختلفة عن تلك المستعملة في الأنسجة الحديثة من حيث الاستدامة فنجد توافقا تاما وانسجاما بين التوسعات الجديدة.

1- ملامح الاستدامة في العمران التقليدي :

ومما لا يخفى علينا أن الأنسجة القديمة كانت تضم مجموعة من ملامح الاستدامة على المستويين التخطيطي العام والإنشاء المعماري حيث قام الدكتور خلف الله بتلخيصها في النقاط التالية:

1-1- التناسب بين مساحة القصر والكثافة السكانية:

وهذا استجابة لرغبة المصممين في الحصول على نسيج متراسم والتقليل من استهلاك المساحة وقد نتج عن ذلك تناسب واضح بين مساحة القصر والكثافة السكانية وفق الأهداف المرجوة، ويعتبر هذا ملمحا بارزا نجده في مبادئ التنمية المستدامة التي تركز على خلق تجمعات حضرية محدودة الحجم والسكان للتحكم في الموارد وتنظيم الخدمات تكون ذات طرق قصيرة وحركة محدودة بغية الاستهلاك الراشد للمجال.

(1)-2- تنويع استعمال المجال:

ويظهر هذا الملمح في النسيج العمراني التقليدي في تنوع وتعدد الاستعمالات في الراحات وفي مجالات التفاعل الاجتماعي الأخرى كالمسجد والسوق والأزقة، بحيث نجد أن استعمال المجال يكون متعددًا لأكثر من نشاط واحد، وقد يكون هذا التنوع يوميًا حيث يكون لكل نشاط وقت معين من اليوم صباحًا ومساءً، أو قد يكون فصليًا أو موسميًا، وهذا التنوع يفيد في عمليات كسب المساحات وإبقاء الحيوية والنشاط دائمًا على الأنسجة العمرانية فبعض الأنشطة تكتسي الطابع الموسمي فلو خصص لها مجال خاص بها فسيفقد حيويته بمجرد فوات النشاط المقام به.

(1)-3- المعالجة البيئية:

ويقصد بها إنتاج نسيج عمراني متلائم ومتكيف مع الظروف المناخية المحلية.

(2)- ملامح الاستدامة في العمارة التقليدية:**(2)-1- تنظيم وكفاءة الفراغ المعماري:**

ويظهر في تنظيم المكونات المعمارية للقصور والحرص على تقدير الحاجيات والمتطلبات الحقيقية للسكان.

(2)-2- استخدام مواد بناء محلية:

ولكون هذه المواد نابعة من البيئة فإنها تكون ذات ديمومة عالية وذات خواص فيزيائية قادرة على التكيف مع المعطيات المناخية للبيئة المحلية.

(3)- الخصائص العامة للمدن العتيقة:

إن السمة الغالبة على هذه المدن القديمة هو نشأتها على طول الطرق القافلية المخصصة للتجارة من مدن الصحراء العميقة إلى مدن الشريط الساحلي، والعناصر التي نجدها بارزة في تلك المدن كانت بفعل وبايحاء من الجغرافيين والعمرانيين في تلك العصور وهذا بغية الوصول إلى المدينة المثالية، وما يلاحظ على هذه المدن هو تغير رموزها الاجتماعية بعد مجيء الإسلام وهذا على جميع المدن سواء أكانت عربية أم بربرية.

(3)-1- المظهر الشكلي والتنظيمي العام للمدن العتيقة:

اتسمت المدن العتيقة بمجموعة من الخصائص على المستوى العام والشكل التنظيمي لعل أهمها:

* تغليب الجانب الدفاعي من خلال استعمال الأسوار والخنادق، والتركيز والبناء في الوسط واختيار الأماكن المرتفعة المحصنة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأمن.

* تأخذ المباني ذات الأهمية الكبرى سواء الدينية كالمسجد أو مباني الحكم كالقلاع والقصور المكان المركزي في المدن العتيقة ويظهر هذا في العهد البابلي كما سجل أيضا حتى في دول

أوروبا الوسطى، كما نجد تركيز الأنشطة التجارية والحرف على امتداد عدة طرق رئيسية، وما يلاحظ على مستوى المدن البيزنطية هو تركيز الأنشطة والوظائف بصيغة تفضلية فكما كان النشاط ذا قيمة كلما دنا واقترب من المركز ومن المباني ذات الأهمية، ونجد في المدن الإسلامية وعلى مقربة من الأماكن الدينية المباني التعليمية كالزاوية والمدسة ثم المستشفى والمقبرة على مقربة من بعضها لقرابة الصلة الوظيفية بينها، أما على الصعيد الدفاعي فنجد أن الاهتمام كان منصبا على الفاعلية في الحماية وتوفير الأمن فنجد الأسوار المزودة بالبوابات الكبيرة التي تضم بعض الآثار الرمزية المستمدة من العمارة المحلية.



الصورة (II-3): قلعة الإسكندرية - مصر-
المصدر: موسوعة ويكيبيديا 2011/04/22.

* الدور المهم جدا للماء وهو العنصر الأساسي للحياة بحيث نجده عنصرا مهما في المدن القديمة من خلال توفره واستعماله في كل مكان نافورات، أحواض، حمامات. (الصورة -17-).



الصورة (II-4): استعمال الماء في الأفنية الداخلية
قصر الحمراء بغرناطة - إسبانيا-
المصدر: (خلف الله. ب، 2005)

وقد زاد هذا العنصر وهو الماء أهمية ارتباطه ببعض الشعائر التعبدية في الدين الإسلامي كالوضوء والاعتسالة، وتكمن أهمية الماء في القديم هو ارتباطه بالنشاط الاقتصادي السائد حينها وهو الزراعة فكان الماء يستعمل للسقي، وقد اتخذت في ذلك أي في السقي واستخراج الماء من باطن الأرض عدة نظم أهمها:

أ - الآبار: وهي حفر في الأرض متفاوتة الأعماق تحفر لغرض الحصول على الماء وتأخذ غالبا الشكل المستدير، ويتم من خلالها استخراج المياه من باطن بواسطة عدة طرق منها الحبل والبكرة (الصورة -17-)، الخطارة (الصورة -18-).



الصورة (II-6): صورة للخطارة
المصدر: الباحث 2009.



الصورة (II-5): صورة لبئر بحبل وبكرة
المصدر: موسوعة ويكيبيديا.

ب - الفوغارا: وهي مجموعة آبار تحفر بالتتابع حيث تصب كل بئر في التي تليها حتى الوصول إلى كمية كافية من الماء وهذا بعد حفر حوالي 150 بئرا كحد أدنى يفصل بين كل اثنين منهما مسافة 04 أمتار تقريبا، وبعدها تجمع كمية معتبرة من الماء في البئر الأخيرة وهي أكبرهن حجما تدعى " أقوسري " (الصورة -19-) ومنها وعبر السواقي (الصورة -20-) إلى الغابات والبساتين أين يتم تقسيم حصص الماء بالاعتماد على " القصرية " (الصورة -21-).



الصورة (7-II): صورة لساقية بكاف القصر
- تميمون -
المصدر: الباحث 2009.

الصورة (8-II): صورة للبئر أقوسري
بكاف القصر - تميمون -
المصدر: الباحث 2009.



الصورة (9-II): صورة القصرية.
المصدر: الباحث 2009.



* وجود شبكة متعددة من الطرق والمسالك والتي تأخذ سمة الضيق وكثرة التعرج، وتضم أبوابا للحماية من الغرباء حيث كان هذا الطراز سائدا في العصور الوسطى، أما في المدن العربية فيمكن ترجمة هذه الوضعية بالنظر من عدة زوايا مختلفة تكنولوجية، مناخية واجتماعية:

- الجانب التكنولوجي:

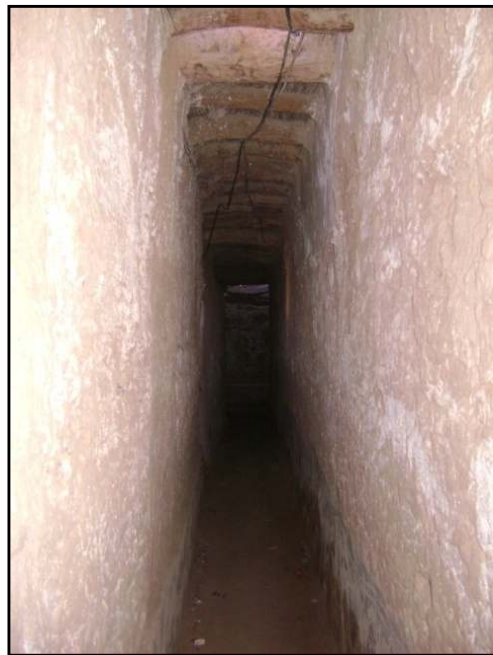
إن ضيق المسالك يضمن مبدأ التراص الذي يساعد كثيرا المباني على الديمومة حيث يتم تقاسم الحمولات، إضافة على ذلك لم تكن هناك حاجة ملحة لتوسيع المسالك وهذا لاعتماد المدن القديمة وسكانها على الحيوانات حيث يتم تخطيط وشق الطرقات بدرجة تسمح لحيوان واحد مزود بجرايين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله بالمرور فنتج عن كل ذلك ضيق المسالك.

- الجانب المناخي:

وهو جانب مهم جدا في التأثير على تخطيط المدن القديمة بحيث يتم شق طرق ملتوية ومتعرجة للتقليل من هبوب الرياح الباردة أو الحارة والتي تكون غالبا محملة بالأتربة فالتعرج يساهم في كسر الرياح بشكل جيد جدا، أما عن ضيق المسالك فالهدف منه هو خلق أكبر قدر من الظل وخاصة في فترة ارتفاع درجات الحرارة وما يؤكد هذه النظرية هو أننا نجد أغلب المسالك في المدن القديمة مسقفة سواء أكان هذا السقف مستعملا أو غير مستعمل.

- الجانب الاجتماعي:

ضيق الطرقات والمسالك ناتج من تراص المباني وقربها من بعضها والذي يدل على الوحدة والتماسك في إشارة إلى قوة الروابط الاجتماعية القائمة بين أفراد المجتمع.



الصورة (10-II): صورة لزقاق بقصر كرزاز - بشار -
المصدر: الباحث 2009.

(3-2- إبراز الملامح والرموز الاجتماعية:

هناك العديد من العناصر الخاصة بالمدن القديمة وخاصة المدن العربية منها تدل بصورة واضحة على أساليب العيش في تلك المدن العتيقة وتبرز تصرفات أهلها الخاصة أو العامة والتي نجد الكثير منها ذات مرجعية إسلامية ونذكر منها:

* الخصوصية: وهي تتجلى من خلال عزل الفرد الأجنبي عن العائلة على مستوى الخلية والوحدة السكنية عن طريق إقامة جدران صماء والتي قد تتخللها أحيانا بعض الفتحات المطلية على الشارع حيث تبدأ هذه الفتحات من مستوى الطابق الأول، كما أن جل المنازل تأخذ تقريبا نفس الشكل وهو الاعتماد على فناء مركزي تتم على مستواه كل الأنشطة اليومية خصوصا النسوية منها.

* تتجمع الوحدات السكنية مع بعضها بشكل عنقودي فينتج لنا عدة أحياء فكل قبيلة تأخذ حي معين تعيش فيه ويتم الوصول إليها عن طريق شبكة من المسالك شبه الخاصة والتي تأخذ شكل الممرات توصل إلى الأحياء.

* الأهمية الكبيرة للوقت المخصص للحياة الخاصة مع وضع مجموعة من القوانين تهدف إلى الفصل التام بين المجالات العامة والأخرى الخاصة، حيث تخصص المجالات العامة كمراكز يتم على مستواها الأنشطة العمومية كالصلاة والتجارة، أما نظيرتها الخاصة فتأخذ الاهتمام الأكبر لارتباطها بالأنشطة العائلية والأسرية الخاصة، وفي دراسة تحليلية معاصرة قام بها (حكيم، ب، 1996) أشارت إلى أن 69% من مساحة مدينة تونس مخصصة للإسكان بما في ذلك الأفنية الداخلية، وأن 12.5% من مجمل المساحة مخصص للطرق بما في ذلك الممرات والمسالك التي يمكن ضمها إلى الجزء الخاص، في حين أن 07% مخصص للأنشطة والوظائف الدينية، أما البقية الباقية فموجهة إلى النشاطات الاقتصادية.

* الفصل المجالي الجيد في الأحياء المتجانسة ونقصد بهذا الفصل بين المباني المتقاربة كالمسجد والحمام والسوق، هذا التجانس ينشأ أساسا من قاعدة دينية أو عرقية.

* إبعاد الغرباء والأجانب عن المجالات الأسرية أدى كما أسلفنا إلى إعطاء مبادئ خاصة في تخطيط الأحياء عن طريق التدرج في الطرقات من العام إلى الخاص، كما أدى أيضا إلى إنشاء واستحداث مباني خاصة بالمسافرين والتجار ومجالات خاصة بالعبور وإنشاء المخازن والمستودعات تأخذ عدة تسميات حسب المنطقة كالكاف والخبز والفندق والوكالة، وتأخذ شكلا عاما عبارة عن فناء رحب محاط ببنائات ذات طوابق وأروقة وتكون هذه المباني على مقربة من السوق والأماكن العامة.

* الغياب الواضح للتدخل الحكومي في مسائل البناء والتعمير في المدن العتيقة وخاصة العربية منها حيث أكد (جميل عبد القادر، أ، 1995) أنه >> لم يكن للسلطة تدخل كبير في شؤون تسيير

أحوال الناس، وكان تدخلها مقتصرًا على فض النزاعات التي يعجزون عن حلها في ما بينهم، فكان تسيير الأمور يعتمد اعتمادًا كبيرًا على العادات والأعراف. << ولا ننسى كذلك الدور المهم الذي لعبه العلماء ورجال الدين في تسيير أمور الناس في تلك الأزمنة فقد كانوا يحظون بمكانة عالية وإيهم يرجعون في أمور الحل والعقد، والسلطة إنما فضلت عدم التدخل في شؤون الناس كونها علمت أن تدخلها يعد إرغامًا للسكان على أمر قد لا يكونون راضين عنه ولذا نجد عمر رضي الله عنه يقول (ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن).

وإذا كان هذا في مسألة واحدة فكيف بمن تفرض عليه نمطًا معينًا من العيش قد لا يعجبه ولا يتمشى مع رغباته وعاداته وتقاليده.

* إن من أهم خصائص البيئة التقليدية التي أوردها (جميل عبد القادر، أ، 1995) هو تواجد جميع عناصرها المهمة داخل العقارات الخاصة كالمنازل والقصور أو العقارات ذات الاستخدامات المحددة كالمدارس والمساجد على عكس البيئة الحديثة فالكثير من ثروات المجتمع تستثمر في المناطق العامة كالساحات والطرق ولناخذ الأشجار كمثال، ففي المدينة التقليدية نجد أن غالبية الأشجار متواجدة في أفنية العقارات الخاصة كالمنازل والقصور والمدارس والمساجد بينما تندر في الأماكن العامة كالساحات والطرق والشوارع، وهذا خلاف المدينة الحديثة حيث نجد بها أن أغلب الأشجار متواجدة في الأماكن العامة كالطرق والحدائق والساحات العامة وهذا الاختلاف له أسباب كثيرة منها السبب الاجتماعي وهو الأكثر شيوعًا بين الباحثين وهو أن العمارة الإسلامية تنظر إلى الأسرة من ناحية الستر (الخصوصية) والبعد عن أعين المتطفلين ولذا فقد وفرت للإنسان كل شيء في بيته هذا على عكس العمارة الغربية التي تدعو إلى الاختلاط فلا بأس عندها من استخدام الحدائق العامة مجتمعيين ولذا كثرت الأشجار في الأماكن العامة.



Calle de los españoles, largeur totale 13 m.

الشكل (II-1): مقطع لأحد شوارع المدن الحدائقية.

بعرض 13م.

المصدر: (Panerai, Ph & Al, 2002).



Calle Burgos, largeur totale 20,20 m.

الشكل (2-II): مقطع لأحد شوارع المدن الحدائقية.

بعرض 20,20 م.

المصدر: (Panerai, Ph & Al, 2002).



الشكل (3-II): مقطع لأحد شوارع المدن الحدائقية.

بعرض 30,50 م.

المصدر: (Panerai, Ph & Al, 2002).



الشكل (4-II): مقطع لأحد شوارع المدن الحدائقية.

بعرض 25,25 م.

المصدر: (Panerai, Ph & Al, 2002).

*** الأوقاف والحبس:**

وهي إحدى خصائص المدن القديمة حيث يقوم أحد الأغنياء بوقف شيء مما يملكه في سبيل الله بحيث لا يكون لأحد الحق في الاستفادة منه إلا من أوقف لهم وكمثال أن يقوم أحد بوقف أحد بساتينه لابن السبيل فلا يحق لأحد أن يأكل منه ما عدا أبناء السبيل، ويعتبر الوقف والتسبيل عند علماء الدين الإسلامي من الصدقات الجارية التي يلحق ثوابها وأجرها صاحبها بعد موته.

*** القيام بإجراءات وحلول من أجل التكيف مع المناخ، وسوف نقتصر في هذا العنصر وتماشيا مع منطقة الدراسة على ذكر بعض الحلول المعمارية والعمرائية المتخذة في المدن العتيقة من أجل التكيف مع المناخ الحار والجاف.**

أ- في فصل الصيف:

1- توفير أكبر قدر من الظل بواسطة:

- المخططات المتراسة.

- الأفنية الداخلية.

- التقليل من الفتحات واستعمال جدران صماء.

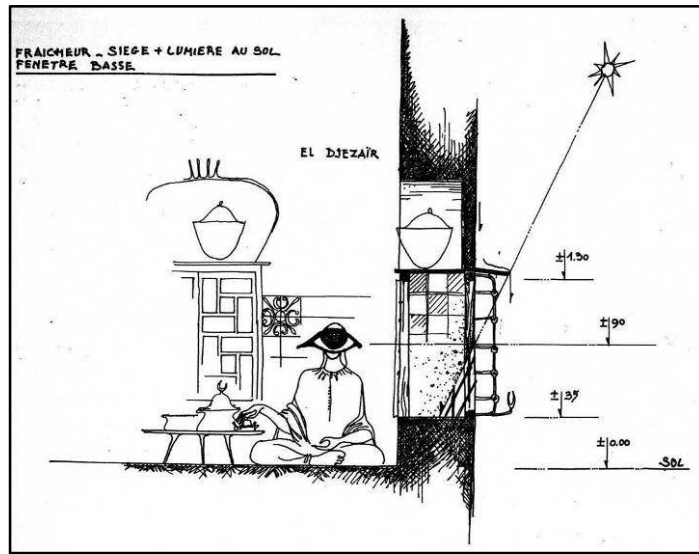
- استعمال عناصر معمارية مثل المشربيات وكاسرات الشمس.

- الأروقة المغطاة.

2- العمل على خلق حركية للهواء من خلال خلق فتحات تسمح بحركة الهواء.

3- عزل مركز الحرارة من خلال استخدام جدران وأسقف تمتاز بالثقل والسماكة الكبيرة.

4- التبريد: ويتم هذا عن طريق إدخال عنصر الماء إلى البيوت من خلال إنشاء النافورات وكذا إدخال العنصر الأخضر.



الشكل (5-II): الجدران والفتحات المدروسة لتقليل من الحرارة.

المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

ب- في فصل الشتاء:

1- العمل على توقيف حركة الهواء من خلال القيام بشق فتحات صغيرة للتهوية.

2- القيام بعمليات التدفئة والاعتماد على عنصر النار.

(المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007).

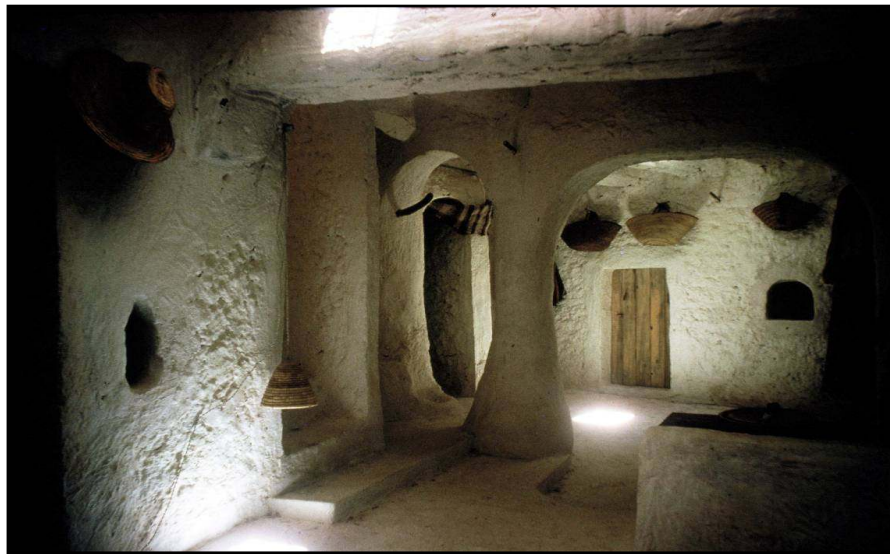
ج- الطرق والممرات المغطاة تسمح بتحقيق وتوفير برودة لطيفة للمارة، كما أنها تحمي جدران المنازل من أشعة الشمس مما يحقق برودة أكبر داخل المنازل، كما أن تعرج الطرق وعدم استقامتها يعمل على كسر وإيقاف عمل الرياح.



الصورة (11-II): توفير الظل بواسطة الطرق المسقفة

المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

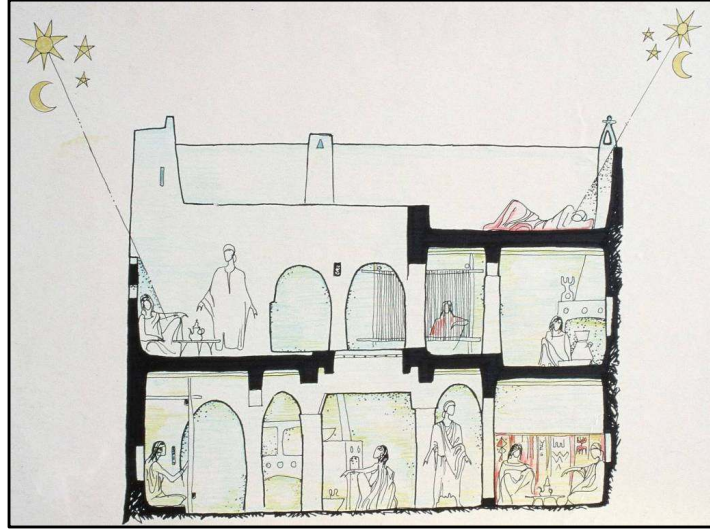
د- الفتحات الرأسية الصغيرة تسمح بمرور الضوء وتمنع دخول الحرارة.



الصورة (12-II): الفتحات الصغيرة تسمح بدخول الضوء وتقلل من الحرارة.

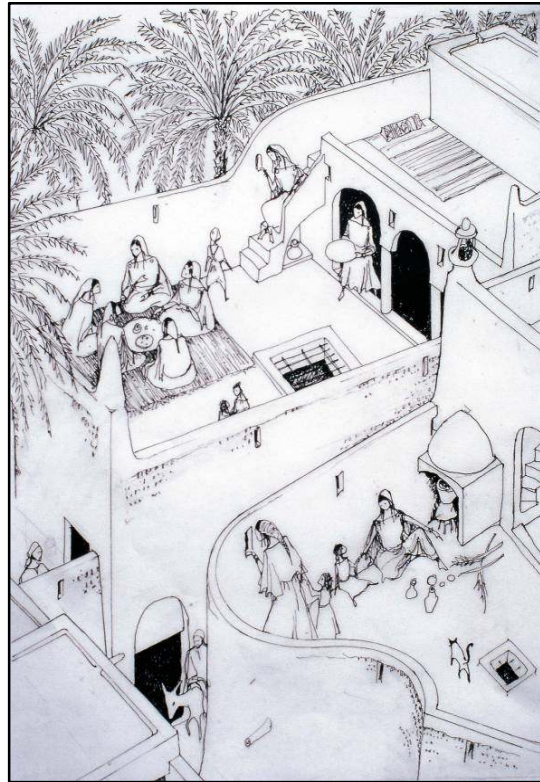
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

هـ- المجالات المفتوحة والمغلقة وعلاقتها بالأنشطة اليومية أو الفصلية، حيث يمكن اتخاذ عدة مجالات ذات استعمالات متعددة حسب اليوم أو الفصل على غرار السطح الذي يسمح بالنشاط فيه والعمل، وعند ارتفاع درجات الحرارة يمكن النوم على السطح، كما أنه وفي بعض أيام السنة ومع تلطف درجات الحرارة يمكن العمل على السطح.

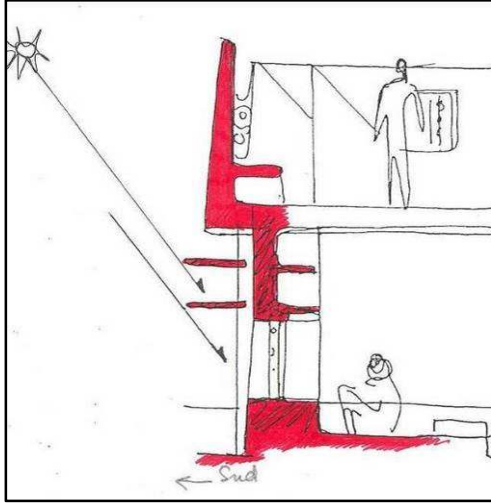


الشكل (II-6): الاستعمال المتعدد للمجال الواحد.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

الشكل (II-7): استعمال السطح عند تلطف درجات الحرارة.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

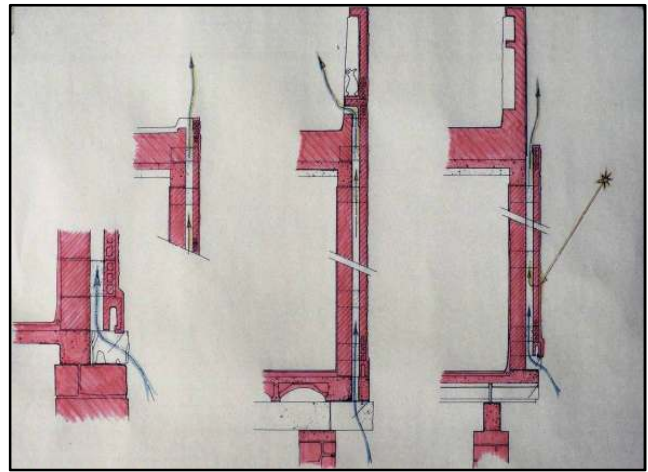


و- استعمال كاسرات الشمس للتقليل من دخول الشمس حيث تكون الكاسرات متناسبة مع الواجهات فنجدها أفقية في الواجهات الجنوبية وعمودية في الواجهات الغربية (الشكل -11-)، كما أننا نجد أيضا نوعا آخر من العزل الحراري وهو الجدران المغطاة حيث تكسى الواجهات بطبقة مفصولة عنها مما يسمح بمرور الهواء والحفاظ على البرودة. (الشكل -11- والصورة -24-)



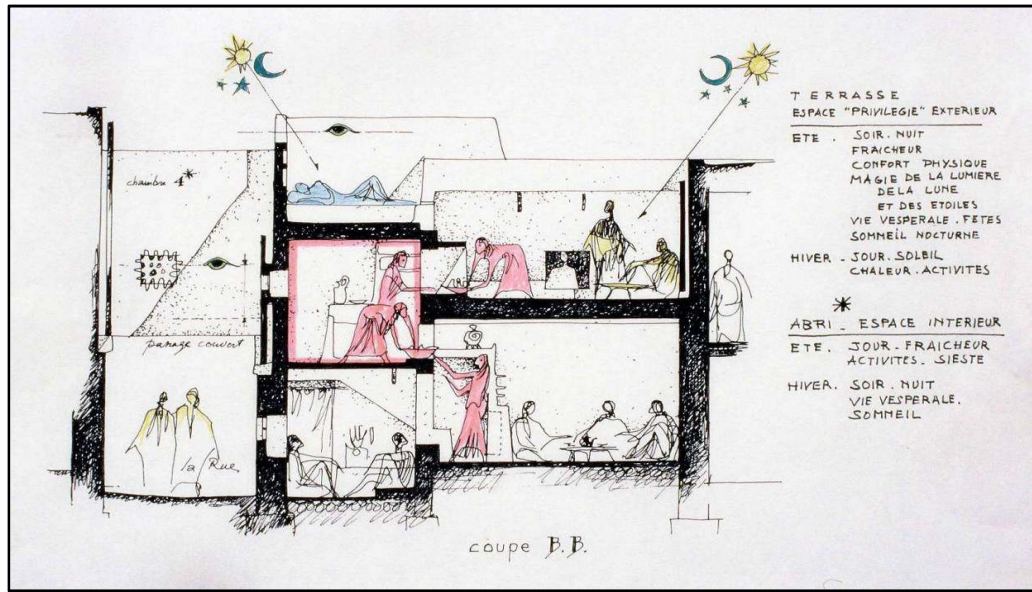
الشكل (8-II): كاسرات الشمس متناسبة مع الواجهات.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

الشكل (9-II): الجدران المزدوجة للتبريد.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ،
ديسمبر 2007.



الصورة (13-II): كاسرات الشمس والجدران
المزدوجة للتقليل من الحرارة.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ،
ديسمبر 2007.

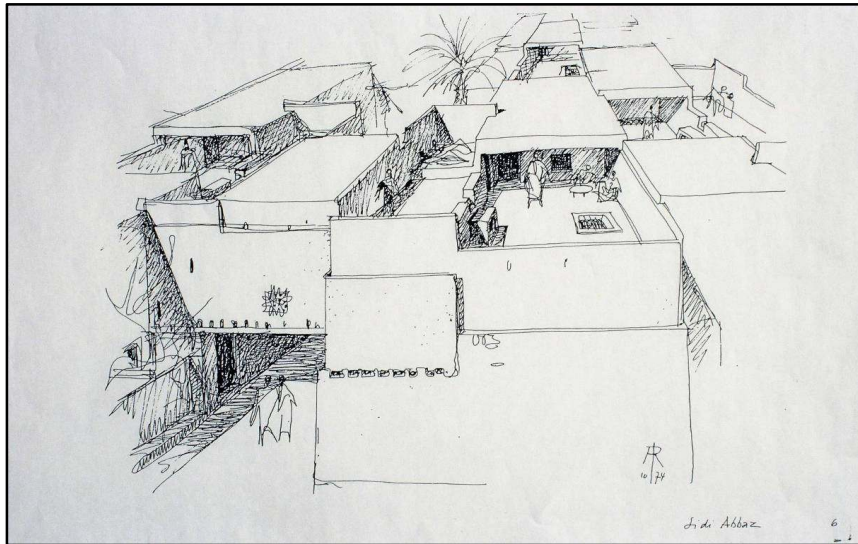
ي- التحكم الجيد في الأبعاد والنسب مما يخلق مجالات متكيفة بشكل شبه تام مع المناخ السائد يدل على معرفة جيدة بأحوال الطبيعة والتقدير المحكم للأبعاد والارتفاعات.



الشكل (10-II): التحكم الجيد في الأبعاد والنسب.

المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

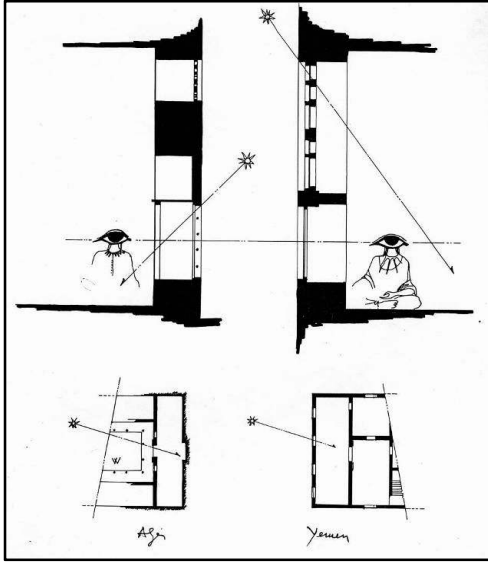
ل- التدرج في المجالات من المفتوحة إلى النصف مفتوحة إلى المغلقة والتقدير الجيد للمسارات والطرق وأحجام الأحياء مع إنشاء الطرق المغطاة على كامل المسار لتوفير أكبر قدر من الظل والبرودة.



الشكل (11-II): التدرج في المجالات من المفتوحة إلى المغلقة.

المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

م- وفي المناطق ذات الإشعاع الشمسي الكبير (المناطق الجافة وشبه الجافة -منطقة الدراسة-) يلجأ السكان المحليون بغية التقليل من الضوء في الجزء العلوي من خلال وضع زجاج سميك ويوضع الزجاج الفاتح في الأسفل للسماح بمرور النور بشكل غير مؤثر.



الشكل (12-II): التقليل من الإشعاع الشمسي.
المصدر: المؤتمر الدولي للعمارة والمناخ، ديسمبر 2007.

لقد عزف المصممون الجدد واستغنوا عن العمارة القديمة التي طالما حققت للإنسان العيش الأمثل من خلال استجابتها لأكبر قدر ممكن من متطلبات حياته، ولعل السبب الفاعل هو تأثر هؤلاء المصممون بحال المسلمين اليوم وما آل إليه واقعهم من ضياع وضعف وما هو عليه العالم المتحضر بقيادة الغرب وما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي أدى إلى إنتاجية أكبر وتقنية عالية ورفاهية تبهر العقول في بعض الأماكن وتمزق الإنسانية في أماكن أخرى وما انجر عن هذه الحداثة المزعومة من انتشار للفقر والجهل والمرض.

إن الحداثة هي إحدى نتائج النظام الرأسمالي المعروف بالنظام الليبرالي الذي حقق للعالم تقدماً مشهوداً في شتى مجالات الحياة كالطب والتعليم والصناعة وحتى في السياسة من خلال مبدأ التعددية الحزبية تحت شعار الديمقراطية، وانتهت بالعالم إلى مفهوم الحداثة الذي يهدف إلى السيطرة والتحكم في قوى الطبيعة قدر المستطاع، لكن وبالملاحظة يتضح أن مجتمعات الحداثة قادت العالم إلى ما يسمى بالتلوث البيئي.

وبالعودة إلى تاريخ الإنسان الأوربي نجده إنساناً مقلداً ومطموس الشخصية جراء تسلط وتحكم الكنيسة في العصور المظلمة الأوربية، أدى هذا إلى سخط الأوربيين وتولد الرغبة في التحرر وتحكيم العقل في تسيير شؤون حياتهم وقد عرفت هذه المرحلة بعصر النهضة الأوربية.

إلا أن هذا النهج لم ينتصر إلا في القرن الثامن عشر (18) وبفضل مساهمات الفلاسفة أمثال **كانط** و**فولتير** و**روسو** الذين رأوا إمكانية تشكيل دستور للحريات وخلق السلام بين الأمم من خلال التقدم البشري، ولاقى هذا الفكر قبولا شعبيا في أوروبا فقامت الثورة الفرنسية ضد الاستبداد

الإقطاعي ومحاولة من أجل تسويد القانون، وقامت الثورة الصناعية التي حررت الإنتاجية برأسمايليتها وخلقت أفاقا أخرى اتسمت بالرفاهية والرقى.

غير أنه لم يلبث هذا النهج أن تواجهه موجات من السخط والتذمر لا سيما بعد انتشار إفرازاته الغير مرغوبة من ظهور للطبقية في أوساط المجتمع وانتشار واسع للفقر والجهل واستغلال اليد العاملة والتسابق نحو التسلح، هذا الأخير أدى إلى ظهور آفة كانت السبب في انقسام العالم وراقي جزء منه على حساب الآخر ألا وهي الاستعمار، حيث نجد أن الدولة الأقوى أرغمت الدول الضعيفة إلى الاستجابة لرغباتها فنجد كل ما يتم انجازه في هذه البلدان يتم وفق وكما تريده الدول الأقوى فنمط تعليمها هو السائد وطراز بنائها هو الغالب، فظهر نوع من جديد من البناء المتمثل في الطراز الاستعماري الذي كان يستمد مبادئه وتعاليمه من مبادئ الحداثة.

لقد أفرزت الحداثة عن نتائج لم تخطر ببال أحد حتى من سطوروا أسسها وسنوا قوانينها فثارت ضدها العديد من الأصوات المناهضة وعلى رأسهم المفكرون الأوروبيون أمثال **جان ليوتار** و**مايكل فوكو** و**جاك داريدا** الذين ثاروا وبشدة على أسس الحداثة معتبرين إياها تسعى للسيطرة والتحكم رغم ما تدعيه من تحرر واستقلالية، فهي تخضع الناس لإرادتها، فمن ملك شهادات أعلى كانت له السيطرة، ومن ملك المال أكثر كان الأحق بالمتعة، ومن ملك التقنية والقوة العسكرية احتل واستعمر من لم يملكها، فيمكن تلخيص نتائج الحداثة في تغليب الغريزة المنفعية السلطوية على الغريزة المعرفية التحررية، والمتأمل يرى وبوضوح أن الحداثة خرجت بالمجتمع من تسلط الكنيسة لتوقعه تحت سلطة المال والقانون والمنفعة الخاصة.

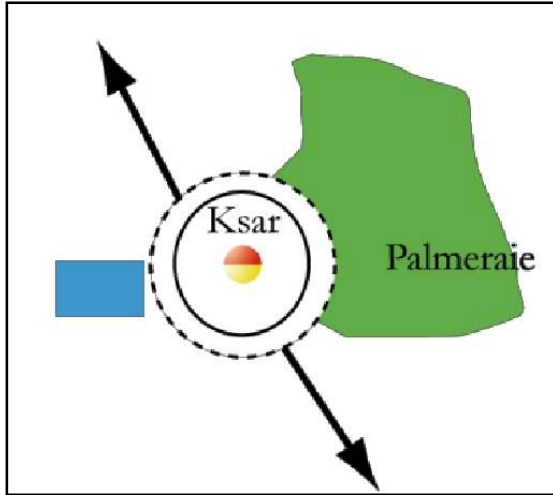
وقد جاء التعمير الاستعماري بمنطق جديد ومخالف لما كان عليه الأمر في العمران التقليدي بحيث يمكن اعتبار أن التعمير الاستعماري يعد البذرة الأولى في تغير المركزية التي كانت متمثلة في القصر.

وقد قام الباحث (Kouzmine, Y, 2007) بعرض المنطق التعميري في الجزائر من خلال تقسيمه إلى ثلاث حقبة رئيسية كما يلي:

*** المنطق القديم في التعمير:**

يكون هذا التموضع على حساب القوافل التجارية المتنقلة عبر الصحراء أي على خطوط الطرق القافلية التجارية، كما يمتاز بالإدماج الكبير مع العناصر النسقية (ماء/واحة)، أما على صعيد الأنشطة السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية فهي مركزة بشكل تام داخل حدود القصر الذي يكون دائما متجاورا مع مصدر المياه وغابات النخيل. (الشكل -11-)

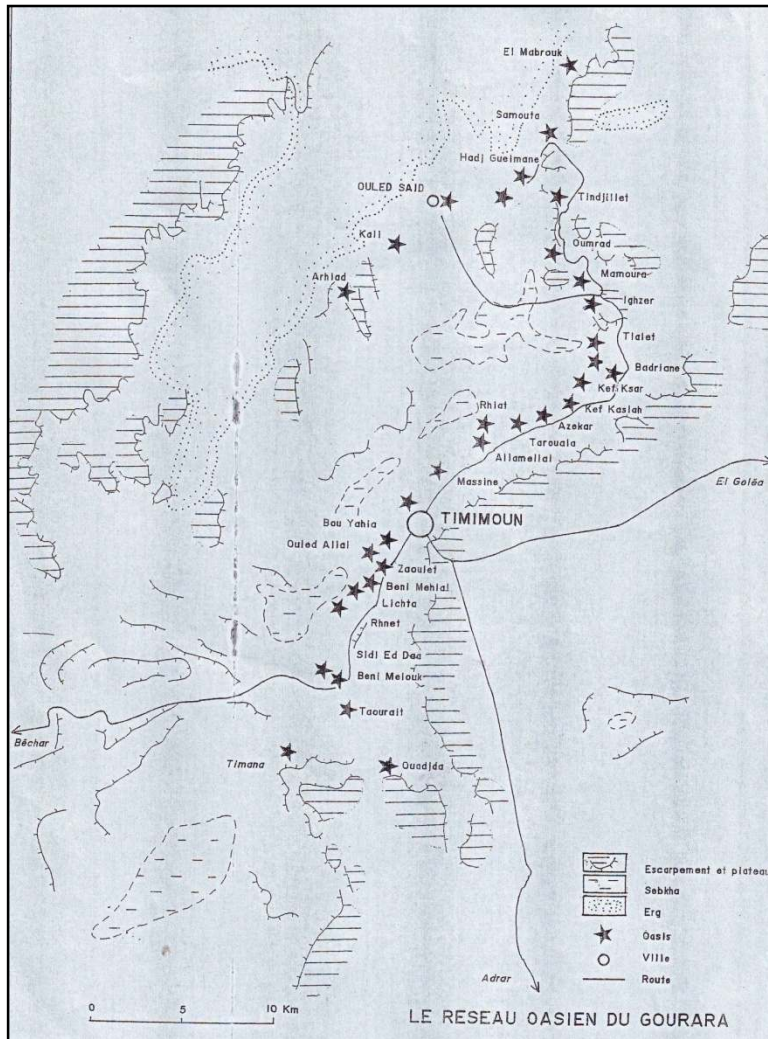
كما أنه يلاحظ في العمران القديم وجود ما يسمى بالشبكة القصورية أو الواحاتية وهي توضع مجموعة من القصور إلى جنب بعضها بمسافات متناسبة للقيام بالتبادلات التجارية وإقامة علاقات وروابط تسعى للتعاون على البقاء والاستمرارية. (الشكل -11-)



المفتاح:

- المركزية السياسية
- المركزية الاقتصادية الاجتماعية
- المصادر المائية
- ⋮ حدود المبنى

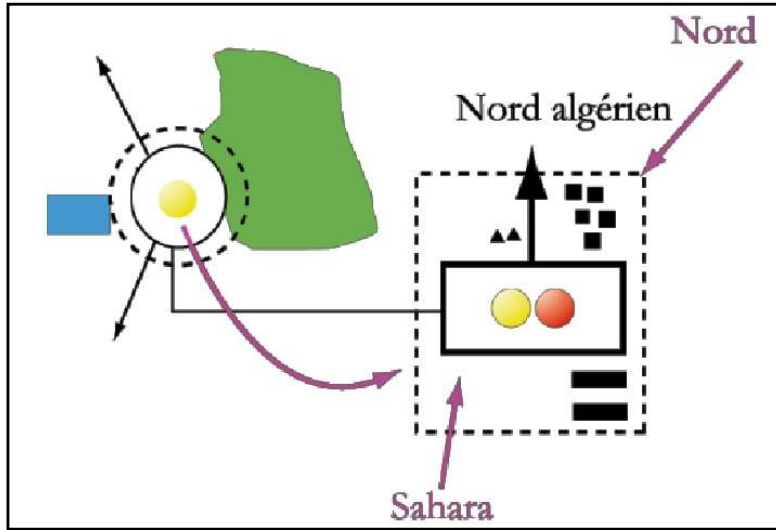
الشكل (II-13): رسم يوضح توضع القصور قبل الاستعمار.
المصدر: (Kouzmine, Y, 2007).



الشكل (II-14): رسم يوضح الشبكة الواحاتية لإقليم القورارا.
المصدر: (Cote, M, 2009).

*** المنطق الاستعماري في التعمير:**

ويتمثل في إنشاء مدن وأحياء جديدة يكون بعضها مرتبطا بالقصر وبعضها يكون معزولا تماما مما نجم عن هذا وكما أسلفنا تحول في المركزية، حيث نجد أن القصر حافظ على قوته الاجتماعية والاقتصادية في حين انتقلت القوة السياسية إلى ما تم تشييده من طرف المستعمر. أما بالنسبة لما شيده المستعمر فإن تموضعها لم يكن بالتماس مع مصادر المياه والغابات وذلك لاعتمادها على مصادر أخرى للبقاء (الاعتماد على الثروات المنقب عنها وتطور التقنيات المحققة لرفاهية الإنسان والتي ساهمت كثيرا في استقراره بالمنطقة)، وما يلاحظ أيضا هو لجوء المستعمر في أغلب الأحيان إلى إنشاء أحياء جديدة تكون في بداية الأمر محاذية للقصر القديم وهذا من أجل المراقبة وتحقيق الأمن ثم تنطلق بعدها عمليات التوسع والتي قد يأتي بعضها على حساب القصر بعد هجرة السكان منه.

المفتاح:

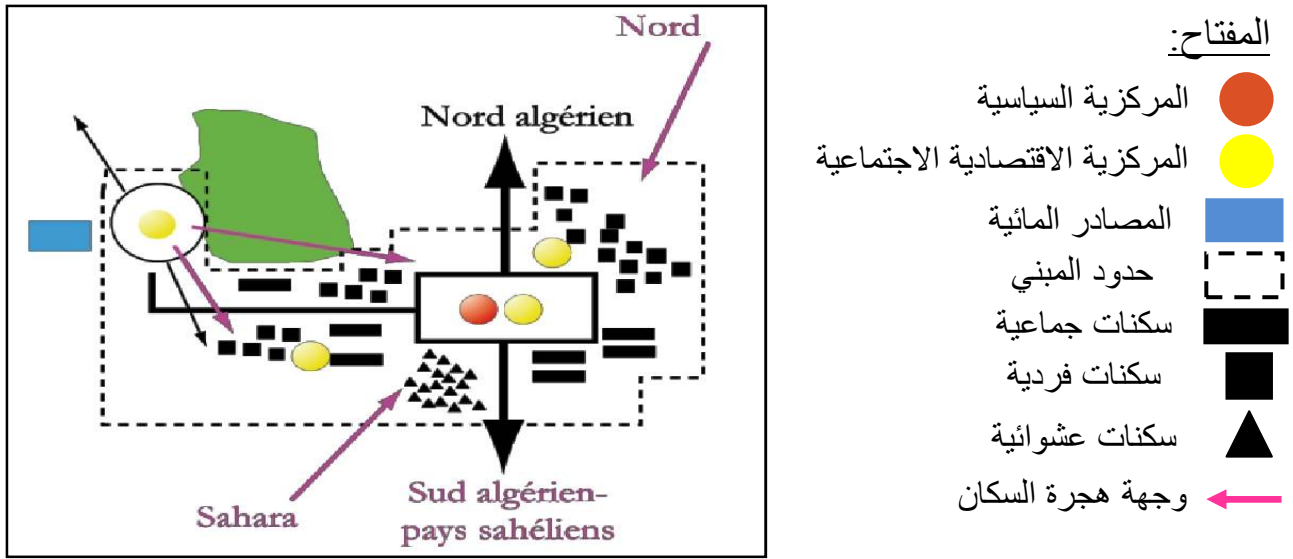
●	المركزية السياسية
●	المركزية الاقتصادية الاجتماعية
■	المصادر المائية
⋮	حدود المبني
■	سكنات جماعية
■	سكنات فردية
▲	سكنات عشوائية
←	وجهة هجرة السكان

الشكل (II-15): رسم يوضح توضع القصور والتوسعات الاستعمارية.

المصدر: (Kouzmine, Y, 2007).

*** منطق التعمير في زمن الاستقلال:**

- ذكر (Kouzmine, Y, 2007) عدة خصائص للتعمير الجزائري بعد الاستقلال لعل أهمها:
- تطور السكنات العامة الجماعية والسكنات الفردية.
 - تطور أكثر للسكنات العشوائية.
 - تقهقر واضمحلال السكنات العريقة.
 - تطور النشاطات والمرافق العمرانية.
 - انتشار واسع للمركزية حيث طغى حتى على حساب المواقع التوسعية المشيدة من طرف الدولة فأصبحت تشكل أقطابا اجتماعية واقتصادية لا يستهان بها.



الشكل (II-16): رسم يوضح توضع القصور بعد الاستقلال.

المصدر: (Kouzmine, Y, 2007).

(4)- تاريخ المدن القديمة قبل الإسلام:

تعد المدينة الإسلامية الأساس في دراسة المدن القديمة وهذا للأثر الكبير والبالغ الذي أحدثه الإسلام بعد مجيئه على تلك المدن والمجتمعات، فقد لوحظ أن هذه المدن يتم فيها تغير كبير وجذري أحيانا على مستوى الأنسجة العمرانية والرموز الاجتماعية بعد مجيء الإسلام وهذا لأن جل العادات والتقاليد يتم تهذيبها وأقلمتها لتنماشى مع تعاليم الشريعة الإسلامية، لكن تطرح إشكالية مفادها أنه لم تكن للعرب قبل مجيء الإسلام أي حضارة فقد كانت تلك الشعوب منتشرة في أقاصي الصحراء الواسعة للجزيرة العربية وتدور بينها حروب شعواء ويمتازون بالترحال والتنقل الدائم فكيف توصلوا إلى التربع والسيطرة على الإمبراطوريات العظمى آنذاك وإقامة حواضر ومدن تعد الأكبر في عصرها سنوات فقط بعد ظهور الدين الجديد.

وقد أجاب (خلف الله، ب، 2005) عن هذا التساؤل بقوله >> ومن الناحية العمرانية يقودنا هذا الأمر أيضا إلى أن نتساءل عن النماذج والثقافات الخاصة التي تشكلت منها الحضارة الإسلامية التي أنتجت هذه المدن، كما يدفعنا للتساؤل عن مظاهر الحيوية والتنوع فيها من توسع مدروس بشكل دقيق وتنظيم داخلي محكم رغم ما يقال عن افتقار الفاتحين المسلمين العرب إلى هذه الروافد كما يرى بعض المشككين <<.

ومضمون الكلام الأخير أنه كانت للعرب أفكار عمرانية ومعمارية لكنهم لم يكونوا يولونها الاهتمام الأكبر، لكن بعد مجيء الإسلام وحثه على التعمير في الأرض وبعد الاحتكاك بالإمبراطوريات العظمى التي تم فتحها قويت هذه الرغبة لدى المسلمين في إنشاء عمائر خاصة بهم وتحمل صفاتهم وخصائصهم وهو الرأي الذي مال إليه بعض المفكرين حيث قال إن للعرب قوة تمكنهم من دمج الثقافات المحلية في آسيا الوسطى وبلاد فارس والمغرب العربي والأندلس في بوتقة جديدة موحدة ومتنوعة .

لكن الدكتور (خلف الله، ب، 2005) أكد وبشدة على أنه كانت للعرب قبل ظهور الإسلام مدن وعمائر تشهد على تمكنهم من فني العمارة والتخطيط، واعتبر أن من شكك في هذا فإنه يقدم طرحاً سطحياً مناقضاً للشواهد التاريخية المختلفة والثابتة التي تدل على تواجد مدن عظيمة وقتئذٍ ودل على كلامه ببعض الأمثلة المختلفة فقال << إن في الهلال الخصيب مثلاً نجد مدينة الحيرة عاصمة الفرات والتي كان يسكنها اللخميون كانت حاضرة كبيرة توجد بها قصور مميزة وسكنات فاخرة ومبانٍ في غاية الجمال >>.

بل إن من أكبر ما يرد به على هؤلاء المشككين هو مملكة سبأ المذكورة في القرآن الكريم فقد كانت آية في الجمال والروعة فقال تعالى << لقد كان لسبأ في مساكنهم آية... >> (سورة سبأ - 15-)، فالعرب قبل الإسلام << ليسوا أقواماً متناحرة ومتقاتلة تعيش على الحل والترحال وعلى الغزو والإغارة فقط وإنما هم أيضاً أصحاب حضارة وثقافة عريقة منهم الحضرة الذين أقاموا حضارات وممالك ما تزال شواهداً قائمة لحد الساعة خاصة في الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية >>.

(5) - الأسس المادية لتنظيم المدينة العتيقة:

وتعد المدينة الأولى التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته من مكة نحو المدينة المرجع لما تم تخطيطه فيما بعد من مدن وعمائر وخاصة الأولى منها وهي مدن الفتوحات، وقد قام الدكتور خلف الله بتعدادها كما يلي:

(5) - 1- المسجد الجامع:

وهو المؤسسة الروحية الثقافية الاجتماعية والوسط الهندسي للمدينة الإسلامية القديمة وهو الموضوع الذي باستطاعة الجميع الوصول إليه من كل جهات المدينة دون صعوبات، والمسجد الجامع هو نقطة استقطاب عمراني ويلعب دوراً اجتماعياً ثقافياً وسياسياً دينياً، فمن الناحية الدينية هناك الصلوات اليومية وصلاة الجمعة الأسبوعية والتي تعتبر فرصة للتواصل والتفاعل الاجتماعي، وهذه الصلوات من الناحية الثقافية هي فرصة للاستزادة من العلماء والاستنارة بعلمهم والتواصل معهم، كما أن الجمع واللقاء بين العلماء وقادة الدولة يعد أكبر فرصة من الناحية السياسية للتباحث فيما يخص الدولة ومشاريعها المستقبلية. وانطلاقاً من الموقع المتوسط الذي يشغله المسجد الجامع فقد شكل النواة الأساسية التي يتمحور حولها تكوين المدينة وتخطيطها فتتنظم حوله الأحياء والساحات والأسواق ويعتبر منتهى الطرق والأزقة والشوارع.

(5) - 2- دار الإمارة:

وهذا المرفق لم يكن موجوداً في بداية ظهور الإسلام وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرن بين وظيفة الحكم وسياسة المجتمع مع الوظيفة التعبدية داخل المسجد الجامع لكون القائد العام والحاكم هو نفسه الإمام القدوة المتجلي في شخص النبي عليه الصلاة والسلام، ومع مرور الزمن وتطور الدولة وانفصال شخص الحاكم عن الإمام أصبحت إدارة أمور الدولة تتطلب مجالاً خاصاً

منفصلا عن الوظيفة التعبدية فاستقلت وظيفة الحكم وإدارة الدولة وسياستها بمرفق خاص سمي **دار الإمارة**.

وبالرغم من الانفصال بين الوظيفتين الدينية والسياسية إلا أن المصممين اختاروا لدار الإمارة مكانا مجاورا للمسجد الجامع وهذا للدلالة على الترابط الوثيق بين الوظيفة السياسية والوظيفة الدينية، لكن ومع توسع رقعة الدولة وبروز الانقسامات والفتن الطائفية فقد اضطر المصممون لعزل دار الإمارة عن مساكن العامة والأسواق التي كانت تحيط بالمسجد وهذا بغية تأمين هذا المرفق.

وبرز هذا الأمر جليا في بغداد حيث اقتصرت المنطقة المركزية على المسجد الجامع وقصر الخلافة والدواوين، >> وهكذا تغيرت معالم مركز المدينة الإسلامية فأصبح مركزها يضم المسجد الجامع وبجواره مركز الحكم أو دار الإمارة والدواوين التابعة لها وكذا دار القضاء، وشكلت هذه المرافق العامة نواة المدينة وجهازها الإداري الذي يشرف على جميع الشؤون من حكم وقضاء وحسبة وشرطة يؤطرها معنويا المسجد الجامع رمز الإشراف والمراقبة <<.

(5-3- الخطط أو الأحياء السكنية:

وتكون الأحياء السكنية داخل المدن العتيقة مقسمة وفق التنظيم حيث يترك لكل قبيلة حرية تقسيم الحي الذي يسكنون فيه فيأخذ على عاتقها مسؤوليات البناء والتعمير ويعتبر كل حي نموذجا مصغرا للمدينة، كما تجدر الإشارة أنه لكل حي مسجده الخاص تقام به الصلوات الخمس فقط ويكون متوسطا من حيث موقعه، كما يمكن أن نجد بجواره مدفنا خاصا بسكان ذلك الحي بحيث يشكل الكل هيكلا عضويا متماسكا ومتكاثفا.

(5-4- السوق:

لقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البيع والشراء في المسجد ولذا فقد قام بإنشاء سوق لتعويض هذا الدور الحيوي بالمدينة وهو الدور الاقتصادي. وتعتبر السوق إحدى أهم المكونات العمرانية للمدينة، وكانت في بداية الأمر عبارة عن أرض مشاعة لا تخضع لأي تحديد خاص ثم امتدت النشاطات التجارية بعد ذلك إلى الشوارع حيث أصبحت الشوارع التجارية تشكل مع السوق عنصرا تخطيطيا هاما للمدينة مرتبطا ارتباطا مباشرا مع سكانها لما لها من دور متميز في شحن حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. ولم تكن السوق تضم أي بنايات في أوائل ظهورها بل كانت عبارة عن فضاء واسع رحب، لكن بتطور العمران والحاجات المجتمعية فقد شرع في إقامة البنايات فيها، وأول من قام بهذا الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقد أقام بها بناءين هامين هما " دار الأقطران " و" دار النقصان "، وأما تعمير السوق وإقامتها كبنائية فلم يتم هذا إلا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر ببناء دار تضم سوق المدينة بأكمله >> وبهذا أقام هذا الأخير لهذا الغرض جدارا ذا طاقات وبوابات ثم بنى البيوت التي احتوت جميع السوق، ويقال إن بوابات البنايات جلبت من مدينة البلقاء <<.

بل لقد أقام هذا الأخير القيصرية وهي السوق المغطاة وهذا بمدينة الفسطاط وسماها باسمه حيث جمع فيها بين الوظيفتين السكنية والتجارية حيث كانت هذه القيصارية مكونة من طابقين أحدهما أرضي ويضم حوانيت للتجار والباعة، أما الطابق العلوي فكان يضم المساكن التي كانت تؤجر للتجار، ويتم الوصول إلى هذه السوق بواسطة بوابات مفتوحة على الحارات.

ومن الكلام الأخير يتضح لنا أن الأمويين قد اهتموا بالأسواق اهتماما كبيرا ضمن سياسة الدولة التي وجهت لتعمير الدولة ودفع التطور الاقتصادي بها.

أما في العهد العباسي فقد ازداد الاهتمام بالأسواق ودفعها نحو التطور الكبير والفائق آنذاك فقد شكلت السوق في بغداد جزءا هاما من مخطط المدينة فقد كان هذا المرفق متوفرا في كل جزء من أجزاء المدينة، ولما توسعت المدينة رأى الخليفة المنصور إخراج السوق خارج المدينة للمحافظة على هدوء المدينة ونظافتها وأمنها.

بل لقد وصل الخليفة المنصور بالأسواق موصلا غاية في التطور، فعند إنشائه لسوق الكرخ حدد لكل أهل تجارة مكانا مميزا خاصا بهم وتعدى الأمر حتى وصل إلى أصحاب الحرف فقد قال البيهقي " فقد خصص لكل حرفة منطقة خاصة ..."، وبعد هذا التطور المذهل الذي عرفه هذا المرفق كان لزاما على الدولة وضع نظام معين يشرف على تنظيمه وتحصيل مدخوله فظهرت وظيفة المحتسب التي تم تطويرها فيما بعد إلى مؤسسة إدارية هامة تقوم بوظائف متعددة تسمى مؤسسة الحسبة.

وقد توصل الدكتور خلف الله إلى أن الأسواق في المدن الإسلامية القديمة أخذت تكويننا خاصا يقوم وفق نمطين رئيسيين هما:

* النمط الأموي:

يقوم النمط الأموي على أسواق مشكلة من مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة مكشوفة في الوسط وللحوانيت ظهر إلى الخارج وفوقها سكنات كانت تؤجر لمن يرغب في السكن في هذا الموقع، وقد روعي في بناء السكنات الخصوصية الإسلامية التي تقدر حرمة العائلة ولهذا فقد صممت بطريقة تجعلها مفتوحة على الداخل وبعبدة عن فضول الغرباء في إطار القيم المجتمعية التي تمنع كشف الحرمات.

* نمط العصور الوسطى:

>> ويقوم هذا النمط أساسا على أسواق تتشكل من حوانيت متراسة تقع على جانبي الشارع الرئيسي للمدينة تمتد إلى الشوارع الفرعية منها، ويرتبط وجود هذا النوع الخاص من الأسواق بوجود شوارع نافذة تنتهي عادة إلى عنصر معماري مهم كالمسجد الجامع أو دار القضاء مثلا << كما امتاز هذا النمط أيضا بأنه جعل لكل أهل صنعة سوقا خاصة بهم وتعرف صناعتهم فيها، وقد تحكمت نوعية النشاط الغالب في توزيع هذه الأسواق داخل المدينة فالتجارة التي كان يستعمل فيها الوقود ويصدر عنها دخان أو شرر أو رائحة غير مرغوبة كالحداة والخبازة كانت بعبدة عن سوق العطارين والبزازين وهذا لعدم التجانس وإمكانية تضرر إحداهما بالأخرى.

(5) -5- الشوارع والطرق:

وهي المجالات التي تسمح بالربط والاتصال بين المكونات العمرانية والمعمارية للمدينة، وهي تتكون عموماً من شوارع رئيسية تربط بين الأطراف تتخللها أخرى فرعية تتوغل وتمتد إلى داخل الخطط والأحياء السكنية لإظهار مبدأ التدرج من العام إلى الخاص، وقد أصبحت شبكة الطرق والشوارع في المدن على اختلاف أنواعها وأشكالها وأبعادها تمثل عناصر عمرانية ذات أهمية كبرى للتطوير الاقتصادي والاجتماعي والعمراني للمدن، كما أن للتنقل والحركة والاتصالات دوراً مؤثراً وهاماً في إحداث التفاعل البشري الذي يؤدي إلى التوسع المجالي، فقد كانت الطرق الأولى التي أسسها النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة ذات أبعاد محددة فلم تزد الطرق الرئيسية عن (10) أذرع (05 أمتار)، بينما يتراوح عرض الطرق الجانبية بين (05) و(07) أذرع، واختيار هذه الأبعاد للطرق الهدف منه تحقيق التدرج المجالي من العام إلى الخاص في خطوة هادفة إلى الحفاظ على حياة الجماعة والتقوية بين العلاقات الأسرية وتعزيز حسن الجوار وتوفير الظل وتعديل درجات الحرارة.

وإضافة إلى الاهتمام بأبعاد الطرق والشوارع فقد اهتم المصممون أيضاً بتوجيه الشوارع وجعلها متكيفة مع المعطيات المناخية من خلال توجيه الشوارع توجيهها يتناسب مع حركة الشمس ومع الرياح السائدة وهذا لتوفير الظل والاحتواء من الرياح الغير مرغوبة وجلب الرياح المحببة، ففي المدن الواقعة في الأقاليم الحارة يتم توجيه الشوارع من الشمال إلى الجنوب لتكون عمودية مع حركة الشمس وبهذا يتوفر الظل أغلب فترات النهار ويتم مع كل هذا جلب الرياح الشمالية الباردة، وعلى العكس في المدن الواقعة في المناطق الباردة فتوجيه الشوارع بها يكون شرق غرب. كما كان لارتفاع المباني وبروز الشرفات وبعض العناصر في الواجهات الأثر الكبير في توفير الظل في الطرق والشوارع فغالبا ما كان ارتفاع المباني يصمم بحيث يصل إلى أربعة أضعاف عرض الشارع في بعض الأحيان.

وبفضل ربط الشارع بالإنسان في علاقة مميزة تشعر الإنسان بكيانه فقد تمكن المصممون من تحقيق الجانب الجمالي في الشوارع والطرق وطرد الملل عنها من خلال الشعور بالتغيير والتنوع في منظر الشوارع والساحات وهذا بفضل عاملي الضيق والاتساع، كما أن عدم امتدادها على استقامة واحدة إلى مسافات طويلة تبقى الرؤية المنظورية في إطار معقول غير ممتد إلى الشكل اللانهائي كما هو عليه الحال في مدننا اليوم، وعموماً يمكن تقسيم الشوارع والطرق إلى:

*** الطريق العامة العمومية:**

وهي الطرق ذات الاستعمال العام التي يتقاسمها جميع السكان وتقع مسؤولية صيانتها والمحافظة عليها على عاتق الدولة وهي من جهة تصميمها نافذة داخل الأحياء وتكون مفتوحة وموصلة إلى غيرها من الشوارع ويطلق عليها أيضاً الشوارع الرئيسية.

*** الطريق المغلقة:**

وهي الطرق ذات الطابع الخصوصي الموصوفة بعدم النفاذ كما أن ملكيتها وحق الانتفاع بها مشترك بين أصحاب المساكن المحيطة بها ولا سلطة مباشرة للدولة عليها إلا بطلب من أصحابها.

(5)-6- المنشآت الدفاعية:

وهي إقامة عوامل تقوم أساسا كعراقيل في وجه تقدم المهاجمين والوقاية من كل أساليب هجومهم وتمكن المدافعين عن المدينة من رد الخطر الداهم والتصدي للهجوم المحتمل، وقد بدأ هذا الأمر بإقامة الأسوار وحفر الخنادق حول المدن ثم تطورت شيئا فشيئا لتتجاوز العيوب التي أظهرتها التجارب.

وقد يلجأ في بعض الأحيان إلى القيام بتحسين المدينة قبل إنشائها وذلك حين يتم اختيار الموقع الحصين بطبيعته كإقامتها فوق هضبة وعرة من الجبل أو إحاطتها بنهر أو خندق عميق، ويرى عدة باحثين أن المزوجة بين التحصين الطبيعي والتحصين الاصطناعي الذي يتطور بمرور الأزمنة والعصور وتطور وسائل الحرب الهجومية والدفاعية هو الحل الأمثل لتحقيق أكبر قدر من الحماية للمدينة وسكانها.

(5)-7- الرحبات والميادين:

وهي الساحات الشاغرة الغير مبنية وتكون مفتوحة ومتعددة الوظائف حسب أوقات اليوم وحسب المناسبات والأعياد والفصول، ويعتبر الميدان والرحبة من الناحية الاجتماعية مجالا للتفاعل الاجتماعي والتبادل الإعلامي والتواصل بين أفراد المجتمع، كما انه من الناحية الهندسية يعد ملتقى مجموعة من الشوارع والأزقة مما يسهل تدفق الحركة منها واليها. ويطلق اسم الرحبة على المجال الواسع الخالي من البنايات أما إذا كان بها بنايات أو ما شابه فإنه غالبا ما يطلق عليها اسم العرصة.

وتختلف الرحبات حسب تسمياتها واتساعها ونوع النشاط المقام بها، كما أنها قد تشتمل على بعض المرافق العامة التي تدعم النشاطات خاصة مصادر المياه للشرب والوضوء المتمثلة في العيون والنافورات.

(5)-8- الحمامات العامة:

>> أنشأت الحمامات لخدمة عامة المسلمين من سكان المدينة وذلك لأنها تؤدي وظيفة مرتبطة بالوظيفة التعبدية المتمثلة في الصلاة والتي يشترط فيها الطهارة، وبما أنه ليس بمقدور كل المنازل أن تتوفر على هذا العنصر المعماري فقد ظهرت الحمامات كمحلات عامة لهذا الغرض. وحرص المصممون للحمامات على طهارة مياهها مما استوجب تصميم أحواض بطريقة خاصة تلبي هذا المطلب، وقد أحصى اليقوي عام 272 هجرية عشرة آلاف حمام ببغداد لوحدها، وتطورت الحمامات فيما بعد حتى ذكر الصائبي أن عددها صار ستين ألفا عام 448 هجرية والفرق بين الرقمين يعطي دلالة واضحة على توسع عمران المدينة.<<

(5) -9- الحدائق والمساحات الخضراء:

وهي مجالات لم تكن ذات أولوية في التخطيط العمراني في أوائل ظهور المدينة الإسلامية وإنما ظهرت بعد ذلك بسبب توسع رقعة الدولة وتحسن الظروف المادية والأمنية، وقد أبدع المسلمون في فن التزيين والتأليف العمراني وإنشاء الحدائق وهذا للعوامل التالية:

- القيمة الكبيرة التي أعطاها الدين الإسلامي للشجرة والحث على غرسها والاعتناء بها.
- التأثير بالحضارات العظمى التي تم فتحها والتي كان لها الباع الأعظم في ميدان التصميم وتزيين الحدائق.

وللفوائد الجمالية والاجتماعية والمناخية والصحية التي تحققها المساحات الخضراء فقد اهتم المصممون بتزيينها والاعتناء بها وهذا جعلها مجالات خاصة وإحاطتها بالأسوار والنخيل لحجب الأنظار وتحقيق الحرمة واختيار المواقع المميزة كالروابي والسهول، وعلى العموم فقد استخدمت في الحدائق الإسلامية عناصر أساسية نذكر منها:

- الأشجار والنباتات التي كان الغرض منها توفير الظلال والمتعة البصرية وتحقيق الحرمة حيث بالغ البعض في الاعتناء بها حتى ذكر أن خمارويه بن أحمد بن طولون كسى جذوع نخل قصره بالنحاس المذهب.

- المياه التي ترمز إلى أصل الحياة عند المسلمين ويعد عنوان الطهر والصفاء واستخدامه على شكل مسطحات عليها الأشجار والنافورات والعيون وإكساءها بالفسيفساء ووضع الأسماك والطيور.

ومع هذا كله فقد اعتنى المسلمون بأساليب وكيفيات المحافظة على الماء والاقتصاد فيه فقد قام المصممون بما يلي:

- وضع النافورات والمسطحات المائية داخل الأفنية المنزلية وإحاطتها بالأشجار للحماية من أشعة الشمس والرياح والغبار والأتربة.
- تضيق القنوات التي تتدفق فيها المياه لتفادي التسرب والتبخر.
- اختيار الأشكال المناسبة التي تقلل من حجم المياه المستعملة.
- إعادة استعمال المياه.

وقد وصل المسلمون في باب الحدائق إلى أروع الأمثلة وخاصة حدائق الأندلس التي وصفت بأنها حديقة الحضارة الإسلامية.

(5-10- المرافق العمومية):

وهي المرافق ذات المنفعة العامة التي يشترك في استعمالها والانتفاع بها جميع السكان، وقد كانت هذه المرافق تستحدث استجابة للمطالب الصحية والاقتصادية والبيئية والسياسية، كما اقتضت الضرورة أن تنشأ المرافق العمومية وتتطور بتطور الحاجات في المدينة، وهكذا فكلما ظهرت ضرورة أو بدت حاجة ملحة يتم إنشاء مرافق عمومي خاص بها، وعلى سبيل المثال عند تزايد قدوم الوفود الزائرة والمبايعة للرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة لم يعد المسجد الجامع كافيا لاستقبالهم مما أوجب التفكير في إيجاد مكان لنزولهم وإقامتهم ومنه فقد تأسست دور الأضياف التي كان أهمها دار **عبد الرحمن بن عوف** ودار **رملة بنت الحارث الأنصارية**، وعلى صعيد الاهتمام بالحياة اليومية للمسلمين وتوفير ما يلزمهم فقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الإنفاق بسخاوة على الماء والشروب وقد بادر المسلمون إلى ذلك فاشترى **عثمان بن عفان** رضي الله عنه بئر **رومة** وليس بالمدينة يومئذ بئر يستعذب منها غيرها ووهبها للمسلمين.

>> وهكذا ندرك بوضوح إذا أردنا التأصيل أن ملامح تكوينات المدينة الإسلامية في المجال العمراني ومنهج تخطيطها وتسييرها وإدارتها بدأت كلها في مدينة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي وضع بنفسه مخططها النموذجي الذي يحفظ تماسكها ويقوي الروابط الاجتماعية والثقافية بين سكانها وقد مكن هذا التصور من جمع شتات ما كان يعرف بيثرب في مدينة جديدة موحدة الكيان وعضوية الهيكل و متماسكة الأطراف وذات دعائم موطدة هي المدينة المنورة، وهكذا تشكل عمليا النموذج الأول للمدينة الإسلامية بلمسات بسيطة في ظاهرها وعميقة في معانيها ومقاصدها.<<

(6- الواقعية في العمارة والعمران العربي الإسلامي):

ونعني به مدى ارتباط وانسجام واستجابة المنتج المعماري والعمراني لمتطلبات المجتمع الذي أنتجها ودرجة تماشيها مع مقومات هذا المجتمع، فحتى تكون العمارة أكثر واقعية يجب أن يتوفر فيها أكبر قدر من الدلالة عن المعطيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والزمانية والمكانية لمجتمعها أي بعبارة أخرى يجب أن تكون هذه العمارة منبثقة من صميم بيئتها إلى الدرجة التي لا يمكن أن ترحل معها من مكان إلى آخر أو من عصر إلى آخر، وبإهمال هذا الترابط نقع حتما في الشراك المخفي الذي تعاني منه أغلب مدن اليوم وهو غربة الناتج المعماري وعدم استساغته من المدارك الإنسانية.

والمدينة الإسلامية العربية وكما يقول (الديب، ب، 2001) >> صاغت ثوبا على مفاصل مستعملها رغم تنوع مشاربهم وطبائعهم واختلاف ربوعهم المنتشرة في أصقاع الأرض << ومعنى هذا الكلام وقد سبق الإشارة إليه أن العمارة الإسلامية العربية كانت نتاجا حقيقيا لمتطلبات بيئتها من غير زيادة ولا نقصان وبتكيف مثير مع المعطيات البيئية والمناخية والمادية وأحوال ذلك العصر وإمكانات السكان يومئذ، ولقد أضاف (طالب حميد الطالب، 1990) أن ما يعزز واقعية المدن العربية الإسلامية هو المظاهر التقليدية المتاحة فيقول >> ... لا يمكن بحال من الأحوال تصور بيئة سكنية تقليدية أصيلة دون أن نقرنها بمشاهد السكان التقليديين بملابسهم ومقابلاتهم الحميمة ولا يمكن أن نسلخ هذا الواقع عن مشاهد الأطفال بعثهم البريء على قارعات

الطرق والحارات أو مشاهد دكان الجيرة ومقهى الحي كل هذه المفردات وغيرها تضيف إلى العمارة والمجال العمراني عبرها وشذاها المحلي وبالتالي تعزز واقعتها وانتمائها البيئي... >>. وقد أكد (الديب، ب، 2001) أن الإنتاج العمراني والمعماري في المدينة الإسلامية ينبع من واقع المجتمع الذي يلبس ثوب ثقافة وليدة حضارة عالمية تبنى على أسس راسخة ومبادئ ثابتة تستوعب مختلف المستجدات والثقافات التي استطاعت أن تحتويها مع مرور الزمن وفي كل أشرار رقعة العالم الإسلامي ومع اختلاف مشارب المسلمين وطبائعهم وممارساتهم.

خلاصة:

لقد شكلت المدينة الإسلامية رغم بساطتها مثالا رائعا في تحقيق الطابع الإنساني من خلال نسيج عمراني متعاطف بدرجة وثيقة مع حاجات ومتطلبات الإنسان وقدراته المادية وتحقيق مبادئ الدين والأخوة بالرغم من أقوال المغرضين أمثال ماكس فيبر الذي أورد (مدثر عبد الرحيم، 1983) قوله >> إن المراكز الحضرية في البلدان الإسلامية كانت لا تعدوا أن تكون تجمعات بشرية مترابطة من الزمر والأفراد ويعني ذلك أنها أبعد من أن تكون مدنا. << ولعل حسن فتحي أحسن الرد حينما وصف صورة المدينة الإسلامية كما عند (حسن حنفي، 1981) بقوله >> ... والمدينة الإسلامية لقاء بين المكان والزمان، فالمكان لقاء بين الطبيعة والفكر، بين المساحة والتصوير، بين الامتداد والرؤية، وحيث إن الإنسان سيد الكون وخليفة الله في الأرض فإن اختيار المكان يتحدد طبقا لهذا الإطار، فموقع البقاع للسيطرة والإشراف على الأطراف والسواحل للدفاع على الشواطئ، والتصوير الإسلامي يؤثر في بناء المدينة، فالمسجد الكبير يمثل المحور والمركز وهو موقع خطبة الإمام وتوجيه مصالح الأمة وحول المسجد المدارس ودور المسلم ومساكن الطلاب والمكتبات ثم الأسواق والحمامات والمرافق العامة، والمدينة لها قلب وأطراف، مركز ودوائر، ففي المركز نجد دور القضاء وحاكم المدينة ويتم البناء وفقا للطبيعة التي أبدع الله صنعها من أرض خضراء وماء وهواء فهي قطعة من الطبيعة وامتداد لها، والفن الإسلامي يعبر بوحداته الصغيرة اللامتناهية عن اللامتناهي وعن التواصل. فالمدينة الإسلامية تعد استجابة لمتطلبات الإنسان الحقيقية ومتماشية في نفس الوقت مع إمكاناته المادية حيث نجدها تضمن للإنسان راحته من جهة الموقع وكذا كيفية البناء وتموضع المرافق العامة بها، كما نجد هذه المدن تضم العديد من العناصر الخاصة والملاحم والرموز الاجتماعية التي تدل وبصورة واضحة على أساليب العيش في تلك المدن وتبرز تصرفات أهلها الخاصة أو العامة، وتتجلى هذه الملاحم في الخصوصية والتجمع العنقودي للأحياء والوحدات السكنية وكذا التدرج المجالي من العام إلى الخاص والفصل المجالي وإبعاد الغرباء والأجانب عن المجالات الأسرية، كما اتسمت هذه المدن العتيقة بمجموعة من الخصائص على المستوى العام والشكل التنظيمي كتغليب الجانب الدفاعي من خلال استعمال الأسوار والخنادق والبناء في الوسط واختيار الأماكن المرتفعة، كما أن المباني ذات الأهمية الكبرى تأخذ المكان المركزي بالمدينة، كما أن للماء دورا مهما في هذه المدن نظرا لمجالات استعماله المتعددة بها، كما أن شبكة الطرق والمسالك بهذه المدن تأخذ سمة التعرج والضيق لأسباب مدروسة، ونجدها مع كل هذا متماشية ومنسجمة مع الطبيعة التي خلقها الله في صورة تكاملية كأنما هي قطعة من الطبيعة وليست عنصرا غريبا عنها.